مجموعة وقائع طبية

الكتاب الثالث

مع الإنجليز فى بلاد الإنجليز

أ.د. مرسى عرب

الناشر مؤسسة حورس الدولية

للنشر والتوزيع

٤٤ اش طيبة ـ سبورتنج ـ الأسكندرية

رقم الإيداع

٢٠٠٠/١٧٩٦٧

الترقيم الدولى

9- 47 966-5902

المحتويات رقم الصفحة

مقدمة

لهذا الكتاب قصة

فهو يتضمن خواطر وتجارب عن مرحلة فاصلة من حياتى عشتها فى لندن فى أوائل الستينيات ولمدة تزيد قليلا عن عام ...

ثم تجولت بعد ذلك فى أنحاء بريطانيا طولا وعرضا

وهذه الفترة من حياتى كانت عندما كنت فى حوالى الثلاثين من العمر وهى المرحلة التى يبنى الانسان فيها نفسه وتتكامل عندها خبراته الأساسية ليبلغ بعدها مرحلة الانطلاق والبناء والاضافة والعطاء...

ولذلك فقد كانت مرحلة النضج التى يستطيع المرء فيها أن يستوعب دروس التجارب وأن يتعلم منها، ليستفيد ويفيد ....

وقد عملت جاهدا على الاستفادة مما تعلمت، وأعتقد أننى نجحت فى ذلك إلى حد كبير،وهذا الكتاب هو جانب من محاولة الإفادة أيضا مما تعلمت، وهو بذلك مكمل لما بذلته

ولازلت أبذله فى مراحل حياتى بعد ذلك من العمل على إفادة تلاميذى بوجه خاص والشباب الذين عرفتهم بوجه عام، باستخلاص حكمة التجارب، لحفز الهمم لتحقيق الأهداف، أو على الأقل لاتباع الوسائل الناجحة، وربما أيضا للبعد عن الوقوع فى الأخطاء ...

ومن الغريب أننى كتبت هذا الكتاب الذى يتناول تاريخيا على وجه التحديد العامين الأولين من ستينيات القرن العشرين بعد عودتى من انجلترا بسنوات قليلة، ولكننى لسبب لا أستطيع له تبريرا قد حبست مسودات الكتاب عن المطبعة مايقرب من ثلاثين عام ....

وهناك القليل جدا من الأعمال التى بدأتها على هذا النحو ثم توقفت عن استكمالها قبل أن تبلغ أهدافها النهائية، مع أننى كنت قادرا تماما على الوصول بها إلى تلك الأهداف لولا إنشغالى بما كنت أظنه أولويات طرحت جانبا ما يقل عنها من أهمية ...

ولقد كنت مخطئا تماما فى ذلك، وقد آلمنى هذا الخطأ باستمرار وأنا أتمثل قول الشاعر :

ولم أر فى عيوب الناس عيبا كنقص القادرين على التمام

وعندما قررت أخيرا أن أدفع بهذا الكتاب إلى المطبعة بعد مراجعة كان لابد منها، لتعديل بعض العبارات التى لم تعد صحيحة أو ملائمة بعد مرور ثلاثين سنة على صياغتها لأول مرة، وجدت أن الأحوال قد تغيرت فى لندن وفى بريطانيا بوجه عام تغيرا خطيرا وواسعا .

إلا أن التجارب الانسانية التى تحتويها فصول هذا الكتاب، لحسن الحظ ولدهشتى عند مراجعتها لم تزل كما هى، معبرة تماما عن المعانى التى قصدتها وساعية لتحقيق الهدف من روايتها بصرف النظر عن مرور تلك السنوات العديدة ...

ومع ذلك فقد كانت الحياة فى انجلترا وفى العالم كله على شكل معين فى أوائل الستينيات من القرن الذى مضى،

وهى مختلفة الآن فى مطلع هذا القرن الذى يرى فيه الكتاب النور باذن الله .

ولعل بعض الصور الفوتوغرافية المنقولة التى اخترتها بعناية لتصوير أنماط الحياة ومجرى الأحداث فى الزمن الذى أروى فيه حكاياتى تغنينى عن كتابة فصول مطولة كى أصف الإطار الزمنى لهذه الحكايات حتى أتفرغ فى المساحة المتاحة لتجربتى الشخصية والتى تمت فى ذلك الإطار الشامل.

والواقع أننى كلما زرت مواقع الأحداث التى ترويها فصول هذا الكتاب هذه الأيام أجد نفسى منبهرا بمساحة التغيرات أو حجمها والنظم السريع لحركة التطور ،فلم تعد لندن اليوم هى تلك التى عشتها فى الستينيات، ولكنها من ناحية أخرى مازالت وكأنه لم يمرعليها إلا يوم أو بعض يوم، فهناك البيج بن ومبنى البرلمان الانجليزى العتيق الشامخ وميدان الترافلجار (الطرف الأغر) وبيكاديللى وشارع أكسفورد والهوايتهول تغيرت بعض الملامح

المعمارية فيها ولكن بقيت الأصالة والتراث فيها كما هما شامخين . صحيح أن تمثالا عظيما لونستون تشرشل قد قام فى مواجهة مبنى البرلمان، وصحيح أنهم قد أقاموا متحفا يؤمه الزائرون اليوم فى المكان الذى كان يدير منه تشرشل شئون الحرب العالمية الثانية من تحت الأرض ويقع قرب حى الوزارات فى هوايتهول ... ولكن كل ماعدا ذلك بقى كما هو ...

وصحيح أن اللغة العربية قد أصبحت تملأ الشوراع والمحلات التجارية والبنوك، مسموعة أو مقروءة، ولم تكن الأمور على هذا المنوال فى أوائل السيتنيات، والصحف العربية أصبحت متاحة فى كل يوم فى أكشاك بيع الصحف، والأطعمة المصرية والعربية فى المطاعم المنتشرة فى كل مكان، ومحلات "المكدونالدز" تملأ الشوراع والأحياء بدلا من محلات السمك والبطاطس الانجليزية التقليدية (الفيش أند شيبس) .

وصحيح جدا أن أخلاق الانجليز - على الأقل في شوراع لندن التي تعج بأصناف الوافدين من كل أركان الأرض لم تعد كما كانت أخلاقهم من حيث التمسك بالتقاليد البريطانية الصادقة، إلا أن هناك شيئا ما في لندن لا تخطئه العين أو الأذن لايزال موجودا .... فالتغيرات التي حدثت في حياة الإنجليز وفي بلادهم ربما كانت أقرب إلى التطور الطبيعي الذي حدث في العالم كله على وجه شامل .

وفي هذا الصدد فإن لندن تختلف بلا شك عن مدن أخرى قُدّر لي أن أشهد الحياة فيها في فترة الستينيات ثم عدت مرة أخرى أو أكثر لزيارتها بعد ذلك ... مدن ألمانيا مثلا وبخاصة برلين الشرقية وغيرها (مجدبورج - ليبزج الخ) قبل وبعد توحيد ألمانيا ومدن أوروبا الشرقية (بودابست وبراج وبوخارست وموسكو ولينينجراد) قبل وبعد الإنهيار الشيوعي، والمدن الإيرانية قبل وبعد الثورة

الاسلامية، وكثير من المدن الافريقية فـــى أوغنـــده وكينيا قبل وبعد انحسار الاستعمار عنها ..

ولـهذه كلها قصص أخرى أرجو من الله أن يمكننـــى من تسجيل تجاربى فيها بعد تعدد الرؤى المختلفة باختلاف الزمن مما أتيح لى من زياراتى المتعددة إلى تلك البلاد ..

وبعد فإننى مرة أخرى آمل فى أن التجربـــة التـــى تحكى عنها قصص هذا الكتاب تكون ليست فقـــط ممتعـــة للقارىء، وانما هى أيضا ذات محتوى أتعشم أن يكون بناءا ومفيدا ..

والله ولى التوفيق،،،،

أ.د مرسى عرب

ملامح وصور من

عصر أوائل الستينات

فى

إنجلترا والعالم





عصر جون كيندي وجاكلين كيندي





عصر ارسال رجل فضاء أمريكي الي القمر




الكفاح للقضاء على التفرقة العنصرية ضد السود فى جنوب أفريقيا وكفاح مارتن لوثر كنج فى أمريكا

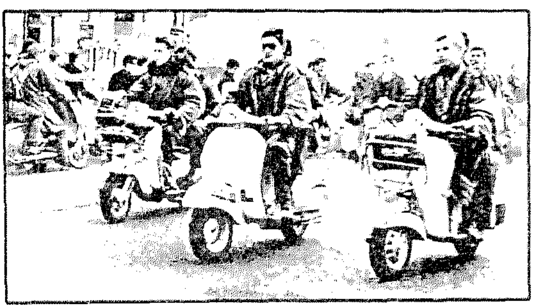




المظاهرات والإحتجاجات

فى كل مكان ولأى سبب





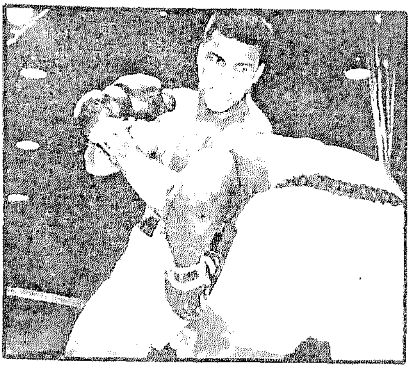
الحركات الشبابية والطلابية الصاخبة







ثورات التحرير الوطنية في كل مكان :
في الجزائر وحركة جومو كينياتا
في إفريقيا









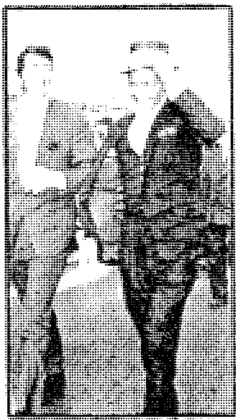


نجوم الرياضة

محمد على كلاى

ونجوم السينما بريجيت باردو وألفيس بريسلى

وعصر الروك أند رول .









وتألق فرانك سيناترا وصوفيا لورين

وانتحار مارلين مونرو



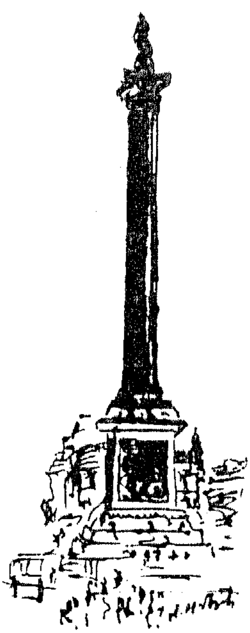


عصر التقاليع والبدع
والحياة الفارغة لقطاع
من الناس فى المجتمع



الفصل الأول

الطريق الى لندن



الطريق إلى لندن ١٩٦١

لندن عاصمة الإمبراطورية البريطانية ... طبيب شاب تطأ قدماه أرضها لأول مرة فى صباح يوم من أيام شهر سبتمبر ١٩٦١ .

الطبيب الشاب لم يكمل بعد الثلاثين من عمره ...كنت حينذاك أقف على أول طريق المستقبل الذى حدده الله لى، فقد حصلت على الدكتوراه فى أبريل من ذلك العام وأصبحت مؤهلا للتعيين فى وظيفة مدرس بكلية طب الاسكندرية عندما يتيسر توفير الوظيفة الخالية!

ومعنى ذلك أنه عندما وقعت عيناى على المدينة الشامخة، كانت عينى رجل تام النضج، أو بالمعايير الجامعية : عالم صغير مبتدىء مؤهل لنقل علوم الطب للآخرين .

ومع ذلك فإننى حتى تلك الوقت لم أكن قد زرت لندن، أو أى مدينة أخرى خارج الوطن .

ولم يكن هذا غريبا فى ذلك الوقت – وقــــد يكــون غريبا بعض الشىء بمقاييس الحاضر، بعد أن مضى علـــى ذلك الزمان الخالى مايقرب من أربعين عام، فإبنى مثلا قـــد زار لندن ثلاث مرات وهو بعد لم يزل طالبا فى كلية الطـب، و تلاميذى من الطلاب فى الجامعة – بل والطالبات أيضـا – زارت نسبة كبيرة منهم عواصم كثيرة من بلاد العــالم فـى رحلات متعددة ٠٠٠ولندن على وجه الخصوص يزورونـــها بأعداد ضخمة فى كل عام، وهم بعـــد لـم يتخرجــوا فــى الجامعات ٠

أما أنا : فتلك كانت أول مـــرة أخــرج فيــها مــن مصر٠٠٠ ولم أكن وحدى فى هذا الموقف٠٠٠ كـــان كـل زملاء دفعتى فى التخرج على هذا النحـــو ! بـــالرغم مـــن مرور مايقرب من سبع سنوات وقتئذ على تخرجنا، اللـهم إلا من قد هاجر منهم فور تخرجه إلى دولة أجنبية، أو ســـافر للعمل فى إحدى الدول العربية أما باقى الزملاء جميعا فلـــم يكن قد خرج منهم أحد حتى ذلك الوقت،على سبيل السـياحة

أو لبعثة تعليمية أو نحو ذلك ، وكنت أول من يحصل من جماعتى هذه أو من أبناء دفعتى على تلك الفرصة التى جاءت على شكل منحة علمية من المجلس البريطانى. ولندن كانت – ومازالت بالطبع – إحدى عواصم الدنيا التى يُحسب لها ألف حساب ..

لكنها كانت إلى جانب ذلك بالنسبة لنا، نحن المصريين، إسما يثير فى النفس عواطف شتى ومتباينة ! وفى كثير من الأحيان متناقضة بعنف ...

فكثير من الأساتذة الأجانب الذين عرفناهم كانوا من الإنجليز، بل إننى تتلمذت فترة من الوقت فى صباى عند تعلم اللغة الإنجليزية على يد مدرس إنجليزى،والأهم من ذلك أننا تعلمنا الطب باللغة الانجليزية، وقرأناه فى كتب معظمها إنجليزى، وأساتذتنا المصريون الذين تتلمذنا عليهم مباشرة كان أغلبهم ممن درسوا دراساتهم العالية فى إنجلترا أو اسكتلندة أو أيرلندة ... وهكذا كانت علوم الطب البريطانى وتقاليده تتغلغل فى عقولنا، وتحيطه بالتالى

مشاعرنا بهالة من الاحترام والتقدير ... فالطب الانجليزى أصل من أصول ثقافتنا ودراستنا، وهو أصل قوى له جذور متغلغلة فى حياتنا .

غير أنه كان هناك وجه آخر لكل ماهو إنجليزى ؛ وجه له أثر سلبى لامجال لإنكاره فى نفس كل مصرى . فانجلترا بالنسبة لنا نحن المصريين هى الدولة التى احتلت بلادنا مايزيد على سبعين عام، والانجليز هم من تفتحت عيونى وآذانى منذ الطفولة وعبر مراحل الصبا على أنهم قوم غاصبون لبلادى ..وما أكثر المرات فى صباى التى طرقت أسماعى أصوات أهلى وبنى وطنى وهم يلعنون الإنجليز، ويمطرونهم بوابل من الدعوات بأن يخرب الله بيوتهم، ويخلصنا من شرورهم ..والإنجليز هم الذين لم أتردد فى صدر شبابى وأنا بعد طالب فى منتصف دراستى بكلية الطب أن أهجر تلك الدراسة بعضا من الوقت، لأنضم إلى حركة الفدائيين المصريين الذين يحاربونهم فى منطقة القنال عام ١٩٥١، لعلنا نستطيع أن نخرجهم من بلادنا

بقوة السلاح، على قلة و تفاهة ما كـان فى أيدينـا منـه وقتئذ !!

وهكذا كانت لندن عاصمة بلاد الانجليز، أردت أو لم أرد، إسما يرتبط بمزيج متباين ومتناقض من الأفكار والمشاعر ...كان ذلك عن المكان ... أما الزمان، فقد كان عام ١٩٦١ .

كانت مصر قد قامت بها ثورة أدركنى قيامها وأنا فى أوائل العشرينات من العمر، وكان قد مضى على قيامها نحو تسع سنوات، خاضت بلادنا خلالها تجارب عديدة، الكثير منها كان يثير مشاعر الفخر والاعتزاز، ولو أن بعضها الآخر كان قد بدأ يثير الشجن فى النفوس .

وفى عام ١٩٦١ كانت مصر قد مضى بعض الوقت على خروجها من العدوان الثلاثى الذى قامت به إنجلترا وفرنسا وإسرائيل عام ١٩٥٦ .وكان لانجلترا بالذات نصيب الأسد فى إدارة هذا العدوان، ولكن مصر كانت قد خرجت منه أفضل حالا مما كانت عليه، فقد تخلصت على

الأقل بعد ذلك وإلى الأبد-من بقايــا كـل صـور الوجـود البريطانى فى منطقة القنال، وخرجت بريطانيا بعار أدبـى لحق بها نتيجة التواطؤ مع فرنساوإسرائيل، وكان الشـعب الانجليزى يطلق على قصة العـدوان علـى مصـر أزمـة السويس The Suez Crisis •

والانجليز كانوا وقتها لايزالون يتذكـرون أحـداث الأزمة التى هزت الحكومة البريطانية هزا عنيفا، وأسـقطت رئيس الوزراء أنتونى إيدن فيما بعد كمـا هـزت مشـاعر الشعب البريطانى مثلما لم يحدث من قبل ..

وماذا أيضا عن تلك الحقبة الزمنيـة حـول عـام ١٩٦١؟

كانت هذه الحقبة نقطة تحول فىالحركة الثورية فـى مصر ؛ كان فترة بناء الصناعة الثقيلة من جهة ومرحلـة لما أطلق عليه بالتحول الاشتراكى من جهة أخرى .

أما فى العالم الواسع فكان ذلك الوقـت هـو فـترة الاستعداد لغزو الفضاء، كان حكم "جون كيندى" فى أمريكـا،

كان عام الحركات النشطة للشباب فى مختلف أرجاء العـالم، عام الروك أندرول والقلق والاندفاع . وأهم من كـل هـذا وذاك فان الفترة المحيطة بعام ١٩٦١ كانت فـترة غـروب الشمس عن الإمبراطورية البريطانية وبـدء زوال هيبتـها التقليدية فى العالم .(أنظر مجموعة الصور عـن مظـاهر عصر مدخل الستينات) .

* * *

فى ذلك الإطار الزمانى والمكانى وطئت قدماى لأول مرة أرض لندن ..

كنت فى نهاية المطاف من رحلة طويلة بدأت بحـرا من الإسكندرية وانتهت برا فى لندن بوصولى بالقطار القادم من بلدة هارويتش Harwich على الساحل الشرقى لانجلـترا إلى محطة شارع ليفربول Liverpool Street Station بقلـب العاصمة البريطانية .

وعلى رصيف المحطة وجدت لدهشتى من ينـادينى باسمى ... شاب إنجليزى تقدم إلى مصافحا، مقدما نفسـه

على أنه مندوب المجلس البريطانى الذى كان يقـــع مقـــره الرئيسى وقتئذ بشارع دايفز المتفرع من شارع أكســـفورد الشهير بقلب العاصمة .

كان الرجل يحمل علامة مميزة، وكان من المفروض أن أقوم أنا بالتعرف عليه عن طريق تلك العلامة، فقد كـــان ملفوفا حول ذراعه الأيمن شريط مــــن القمـــاش الأبيـــض مكتـــوب عليـــه بوضـــوح بالانجليزيـــة عبـــارة"المجلـــس البريطانى" . . .وحسب التعليمات التى كانت لدىّ مـــن قبـــل كان من المفروض أن أهتم فور نزولى من القطار بـــالبحث عنه، والتعرف عليه عن طريق تلك الشارة المميزة .

و بـــالرغم مـــن ســـابق التعليمـــات التـــى كنـــت أحفظها تماما، فـــاننى لـــم أهتـــم بـــالبحث عنـــه، لســـبب بسيط جدا هو أننى لم أكن أتوقع وجـــوده فـــى إنتظـــارى حقا، فأنا لم أصل فى الموعـــد المحـــدد أصـــلا لوصولـــى، بل تأخرت أربعـــا وعشـــرين ســـاعة كاملـــة عـــن هـــذا الموعد !.، ثم كيف يتسنى لـــه هـــو أن يعرفنـــى وأنـــا لا

أضع مثلا على ذراعي شارة تقول أنني فلان الفلاني الذي يأتي إلى لندن لأول مرة في حياته ..؟ وأيضا كانت هناك جموع غفيرة تنزل من القطار في ذلك الصباح، وكثير منهم ولا شك قادمون من خارج البلاد، فهذا القطار يأتي من مدينة هارويتش الساحلية التي تستقبل العبارات الموصلة بين الشاطئ الهولندي في أوربا والشاطئ الانجليزي عبر بحر الشمال. وكان لوصولي عن هذا الطريق، ولتخلفي عن موعد الوصول المقرر يوما كاملا قصة، وللقصة خلفية سياسية ...

فقد كانت العلاقات بين مصر وفرنسا وقتها في غاية السوء، ولذا فانه لم يكن من الممكن أن أمنح تأشيرة للمرور خلال فرنسا بعد عبور البحر الأبيض للوصول إلى إنجلترا بعد ذلك عن طريق العبارات التي تصل بين مينائي كاليه الفرنسي ودوفر الإنجليزي،وذلك جغرافيا – هو أقصر

طريق للوصول إلى لندن - بما يطلق عليه" الطريق البحرى القصير "

غير أنه كان على وأنا أتخذ هذا الطريق البحرى أن أدور حول فرنسا دون المرور بها، وحتى لا أضطر لسلوك الطريق البحرى الطويل الذى يستغرق وقتا أطول بكثير ..

فالطريق البحرى الطويل إلى انجلترا يبدأ من بورسعيد عادة، فيستقل المسافر إحدى البواخر الضخمة المارة بقناة السويس عائدة من استراليا أو الشرق الأقصى، مارا بطول البحر الأبيض المتوسط إلى مضيق جبل طارق ثم بحر المانش مباشرة إلى الشاطىء البريطانى.

أما الطريق البحرى القصير الذى كنت أسلكه وقتئذ إلى إنجلترا- فيبدأ عادة بباخرة تتجه من الاسكندرية إلى أحد موانى جنوب أوروبا، ثم يكمل المسافر طريقه بالسكك الحديدية فى أحد القطارات الدولية عبر مختلف الدول الأوربية حتى الساحل الجنوبى لبحر الشمال - ومن هناك يستقل عبارة بحرية مرة أخرى لعبور بحر الشمال إلى أحد

الموانى البريطانية ويستقل من هناك قطارا مرة ثانية إلـــى داخل انجلترا...

وكان تخطيط رحلتى هو أن تبدأ مـــن الاســـكندرية بحرا إلى ميناء فينيسيا بايطاليا بعد مـــرور عـــابر بمينـــاء بيريه باليونان، ثم أن أستقل قطارا إيطاليا من فينيسيا إلـــى ميلانو لألحق بالقطار الدولى فى الخط الذى يطلقون عليـــه " إكسبريس لوررلى".

كان من المقرر أن تستغرق رحلة القطـــار ســـبعة عشر ساعة متواصلة، يخترق القطار خلالـــها إيطاليـــا ثـــم سويسرا فألمانيا لتنتهى فى هولنده عند ميناء هـــوك أوف هولند Hook of Holland على بحر الشمال ...

وخلال هذه الرحلة بالقطار السريع كانت مشـــاعرى غاية فى الاثارة بعد أن انتهى الجزء البحـــرى الأول مـــن الطريق ... كان ينتابنى ذلك الشعور المثير الذى ينتـــاب المسافر لأول مرة في حياته للخارج فيغمرنى بنشوة لذيـــذة لاتخلو من القلق، والتفتح للحياة ... لقد قمت فيما بعـــد

ذلك وخلال مايقرب من أربعين عـــام بمئـــات الرحـــلات، بمختلف وسائل المواصلات، طفت فيها بدول العـــالم كلــه ... ولكن ليس هنـــاك شيء يبعث على الإثارة كالرحلـــة الأولى، مطلقا ..

ومع أ ن رحلة السكة الحديدية بدأت فى فينيســـيا- مدينة الجندول، وكان صوت عبد الوهاب يرن فـــى أذنـــى فيداعب خيالى والباخرة تقترب من الميناء "أين من عينـــى هاتيك المجالى ... ياعروس البحر ياحلم الخيال .." فقـد اختلطت يومها شاعرية القنوات المائية والجندول، بربكـــة السـفر ومشـــاكل الحقـــائب واســـتغلال الحمّـــالين الايطاليين.. حتى الجندول الذى ركبته مـــن الميـنـــاء إلـــى محطة السكة الحديد لأستقل القطار إلى ميلانو، كان يـــؤدى وقتها مهمة التاكسى ولم يكن فيه ما يبعث علـــى الخيـــال ... ومع ذلك فقد كان يومًا لا ينسى..

بعد أن وصل القطار إلى ميلانـــو، كـــان علـــىّ أن أقضى عدة ســـاعات فـــى محطـــة ســـكة حديـــد ميلانـــو

الضخمة قبل أن أستقل القطار الدولى فى منتصف الليل، وفى الصباح الباكر كان القطار السريع ينهب بى الأرض نهبا، وعبر نوافذه لاحت لى جبال سويسرا الشامخة وبحيراتها الجميلة ..الخضرة تمتد إلى أبعد مرمى للبصر ... والجبال على قمتها الثلوج البيضاء، ومنظر الطبيعة الخلاب يبعث فى النفس التأمل والهدوء فيطفىء شعور القلق ..

ثم يوالى القطار السريع طريقه مخترقا ألمانيا الغربية وعيناى تسترقان النظر من وقت لآخر إلى جدول مطبوع يحدد مواعيد وصوله إلى كل محطة فأجدها مطابقة بشىء يدعو للدهشة والانبهار...

من ساحلها الجنوبى إلى غرب الساحل الشمالى- وساعة تلوساعة، وجدتنى قد عبرت أوربا وأصبحت فى أواخر مسيرتى غبر أراضى هولندا..كانت المحطة التالية للقطار هى روترذام، ولايبقى بعد ذلك إلآ بضع كيلو مترات أخرى للوصول إلى نهاية الخط على بحر الشمال.

وعندما لم يكن باقيا من الزمن سوى عشر دقـــائق
على وصولنا الى روتردام خطرت لى فجأة فكـــرة ســريعة
فرحت أسائل نفسى، ماهذا الذى أفعله؟ أننى أحس بشـــعور
غامر بالإثارة خلال كل ساعة يقطعها ذلك القطـــار٠٠ مـــع
أننى لاأرى من أوربا إلا مايحيط بخط السكة الحديـــد مــن
مناظر الطبيعة وما يوجد فى محطات القطار من مشاهد تكــاد
كلها أن تكون صورة متكررة طبق الاصل٠٠ ومع أننـــى لا
أتعاطى الخمر مطلقا فقد أحسست أننـــى كمـــن يصفونـــهم
بتعاطى الكأس دفعة واحدة وتساءلت مرة أخرى، أليس مــن
منطق الأشياء أن يحاول الإنسان إبطاء حركة الزمــن فــى
مثل هذه الظروف٠ أو على الاقل أن يوهــم نفســه بذلــك-
ليرتشف النشوة فى بطىء وتمعن٠٠؟

وكانت النتيجة المنطقية لهذا التفكير السريع الــذى
لم يستغرق بين اشتعال الفكرة واتخاذ القرار سوى لمحـــة
من الزمن، أن قررت التوقف فى روتــردام مــهما كــانت
النتائج٠٠٠

وكم كانت غبطتى كبيرة عندما توجهت بسؤال سريع الى كمسارى القطار عما يمكن أن يكلفنى ذلك أو أن يحدث لى لو أننى قطعت الرحلة وتوقفت يوما فى الطريق ..وأجاب الرجل " لن يكلفك ذلك شيئا، ولن يحدث شىء على الإطلاق، فالتذكرة سارية المفعول فى نفس خط السير المحدد لها، واذا أردت أن تقطع الرحلة بالتوقف عدة مرات فلا بأس فى ذلك وأنت حر فيما تفعل.."

فى أقل من لمح البصر كانت حقائبى معدة للنزول فى روتردام – المحطة القادمة والمدينة الهولندية التى لم أكن أعرف عنها شيئا، ولا أعرف فيها إنسانا يمكن أن يستقبلنى أو يرشدنى .. وكان ذلك القرار يحتاج لروح مغامرة كبيرة بمقاييس ذلك الزمان، وليس بالقطع بمقاييس هذه الايام، التى يسافر فيها الشبان والشابات، ويقطعون ويواصلون رحلاتهم، ويسيحون فى مدن لا يعرفونها، بل ودون أن يملكوا فى جيوبهم فى كثير من الأحيان ما يعينهم من مال على مطالب معيشتهم..

ونزلت فى روتردام وقضيت فيها ليلة ويوما ..
ولهذا قصة أخرى سأرويها عندما أتحدث عن زياراتى لأوربا ..

وفى اليوم التالى ركبت نفس القطار من محطة روتردام ليصل بى فى المساء إلى مدينة هوك أوف هولاند، ثم ركبت العبارة الليلية لأنتقل إلى الساحل الانجليزى من بحر الشمال فوصلت إلى هارويتش فجر اليوم التالى ..

ومع أول نسمات الصباح كنت أغادر قطار هارويتش- لندن .. حيث التقيت بصديقنا مندوب المجلس البريطانى ..

* * *

سألنى الرجل بود ظاهر"صباح الخير- أعتقد أنك الدكتور فلان .." وأجبت "نعم أنا هو"- وكنت على الفور قد استعدت إحساسى بالعودة الى خطة العمل حسب البرنامج المقرر لى، ولمحت على الفور الشارة البيضاء على ذراعه ثم عدت أسأله : ولكن بالله كيف علمت أننى سأحضر اليوم،

وفى هذا القطار بالذات حتى تنتظرنى، وقد كان المفـــروض أن أصل إلى لندن بالأمس؟٠٠

وهنا تبدو روعة التخطيط الذى يتسم ليـــس فقـــط بدقة التنفيذ وانما أيضا بالمرونة لحساب كـــل الاحتمـــالات المعقول حدوثها، فقد أخذوا فى الاعتبار أنه من المحتمل أن لايرغب - أو لا يستطيع القادم فى رحلة طويلة كـــهذه أن يواصل السفر بشكل مستمر، وعندئذ فانه سيقرر أن يتوقف يوما فى الطريق وسوف يعاود سلوك نفس الخـــط إلتزامـــا بالتذكرة المحددة ليصل فى الموعد المماثل تماما فى اليـــوم التالى٠٠

وهذا ماحدث معى بالضبط٠٠ وفسرها المندوب بأنه حضر بالفعل للقائى فى اليوم السابق فى الموعـــد المحـــدد للوصول، وعندما لم يجدنى حدس أننى قطعت الرحلة يومـــا واحدا، فحضر لمقابلتى مرة أخرى فى نفس الموعـــد فـــى اليوم التالى٠٠

كانت سعادتى بذلك عظيمة، فقد إنزاح عنى القلق نحو تدبير مشاكل الخروج من المحطة والبحث عن تاكسى للانتقال من محطة شارع ليفربول الى شارع ديفيز فى مدينة لم أكن أعرفها، وأصبح هذا كله من مسئولية الرجل الطيب الذى جاء لاستقبالى ٠

كانت الصدمة الاولى التى أصابتنى بمجرد خروجنا من المحطة إلى مدينة لندن الضخمة ٠٠ لم أشعر على الفور بما كنت أتوقعه من عظمة، فميدان المحطة هناك مزدحم، والمدينة فى ذلك الجزء ليست بالفخامة التى تخيلتها والتى رأيتها فيما بعد فى ميادين لندن العظيمة الاخرى كميدان الطرف الاغر مثلا ٠

والحقيقة أن أغلب محطات القطار التى تصل الى لندن ويزيد عددها على سبع محطات، لا تطل على ميادين واسعة وفخمة توحى إليك اذا خرجت من المحطة أنك قد وصلت الى مدينة عظمى تحمل كل ذلك التراث العظيم ٠

ولعل ميدان محطـــة ليفربـول ســتريت بــالذات، والمحطة نفسها، قد أصابهما خلال العشرين عاما التالية بعد ذلك بعض التجديد والتجميل، إلا أن صورتها أمـــامى عــام ١٩٦١كانت أقرب إلى تلك الصورة التى شاهدناها فى أفـلام السينما المصورة لمحطات السكك الحديدية إبــان الحـرب العالمية الثانية.

وعلى وجه العموم لم تكن لندن عندما وطئت قدماى أرضها لأول مرة باسمة على الإطـلاق، بـل بـدت كئيبـة مقبضة، زاد من كآبتها جو ملبد بغيوم الخريف، أضفى على كل مبانيها لونا رماديا مختلطا بالســواد، بـالرغم مـن أن وصولى كان فى أول النهار ..

وعلى العكس من ذلك تماما كـــان النـــاس الذيـــن قابلتهم فى ذلك الصباح، لقد كانوا من نـــوع فريـد،"فـهم يصدمونك " إذا جاز هذا التعبـير - مـع أنـهم موظفـون حكوميون، بفرط اهتمام ومودة، وهم يشعرونك وأنت القـادم

اليهم لأول مرة أنهم يحسبون لك وعنك كل شيء بمنتهى الدقة والنظام ..

وخلال بضع ساعات من وصولى، كنت قد انتقلت من يد ليد، بين موظفين يتمتعون بكفاءة نادرة، وسرعة غريبة فى إجراء خطوات محددة، فهمت فيما بعد ذلك أنها خطوات شبه روتينية تعودوا عليها، إلا أنهم يؤدونها بطريقة تشعرك بالخصوصية، وكأنها قد فصلت على مقاسك .. وخصيصا من أجلك.

فالموظف الذى استقبلنى فى المحطة أوصلنى بالتاكسى إلى فندق خاص كانوا قد حجزوا فيه حجرة أودعت بها حقائبى، وتوجهنا بعدها إلى المجلس البريطانى بشارع ديفيز- بعد محادثة سريعة بين مرافقى وبين موظف الاستعلامات، أعقبها على الفور اتصال تليفونى بين الاستعلامات وبين ماعلمت بعد ذلك أنه قسم استقبال وتوجيه الوافدين الجدد .. وفى دقائق كنا فى حجرة استقبال واسعة للقاء مسئول أو ضابط إتصال منازلت

أذكر اسمه حتى اليوم - مستر ريد -، فقد زاملنى طوال مدة المنحة التى استمرت أربعة عشر شهرا ٠

وفى أقل من ساعة ونصف كانت قد تمت عدة عمليات متتالية انتهت بقدر ضخم من الإنجاز ٠٠ وضعوا أمامى صورة واضحة وكاملة عما يجب أن أفعله أو لا أفعله، شرحوا لى وسائل المواصلات مدعمة بالخرائط، سلموا لى مبلغا نقديا من المال للصرف منه مؤقتا، وخطابا لتسهيل فتح حساب على الفور بأحد البنوك، حددوا موعدا للقاء الأستاذ الذى سأعمل معه فى مستشفى جايز بجامعة لندن، أعطونى بعض النشرات الإرشادية عن التسهيلات والخدمات التى يقدمها المجلس البريطانى للوافدين عبر البحار، وأجروا اتصالات تليفونية مع عدد من الأسر التى يمكن أن تؤجر لى مسكنا فى منطقة مجاورة لمكان عملى ٠٠كل ذلك تم فى سرعة بالغة، ومع شرح دقيق يجعل الوافد الغريب يفقد بالتدريج شعور الرهبة والغربة ٠٠

وهكذا استطعت بعد الظهر فى اليوم نفسه أن أقـــوم بمعاينة بعض المساكن التى أعطيت لى عناوينها، بعـــد أن وصلت إليها بسهولة، لأقرر إختيار أحدها وأنتقل إليه فـــى اليوم التالى مباشرة، لأبدأ حياتى الجديدة فى لندن ..

ومرت الأيام يوما تلو الآخر...

وكم هو كثير مايمكن أن يحكى عن التجربـــة التـــى مررت بها، وخاصة خلال الأسابيع الأولى من حيـــاتى فـــى لندن، حتى استطعت أن أتأقلم تماما مع الشارع الإنجلـــيزى، مع وسائل المواصلات، مع طبيعة الطقـــس المتجـــهم فـــى أغلب الأحيان... وأهم من ذلك كله مع الناس...

ولكن من هم أولئك الناس...؟

لقد كانت لى تجارب مع الناس فى الشارع، ســـوف أحكى منها قصة مع أحد رجـــال بوليـــس لنـــدن الشـــهير، وسأروى قصة أخرى وقعت لى ذات مساء فـــى أوتوبيـــس انجليزى ... سأحاول أن أروى قصصا مع الإنجليز فـــى بيوتهم ونواديهم ... وكطبيب يعمل فى جامعة لندن وفـــى

واحد من أعرق مستشفياتها فسوف تكون لى بالطبع قصص مع المرضى الإنجليز، ومع الأطباء الإنجليز مـــن أســاتذة وزملاء ...

ولنبدأ بقصتى مع رجل البوليس ...

الفصل الثانى

يا بوليس



يابوليس

يبدو لى فى بعض الأحيان أن هناك حبا متصلا بين رجال البوليس والأطباء... وكثيرا ما ألاحظ هذه المودة فى تحية رجل الشرطة المصرى للأطباء، ليس فقط أثناء عملنا فى المستشفيات، بل كثيرا ما أجد جندى المرور فى مصر يبدؤنى بتحية دون سابق معرفة، لمجردأن سيارتى تحمل شارة الطبيب ..

ولقد سمعت كثيرا عن رجل البوليس الانجليزى وعن شهرته فى الصرامة والانضباط، وعن مظهره المثير للاحترام .. دون أن يحمل أى سلاح . ولقد تكون تجربتى مع هذا الرجل مثيرة حقا...

كان ذلك فى أحد أيام نوفمبرعام ١٩٦١ ... وكنت قد وصلت إلى لندن قبل ذلك بأسبوعين، عشت فيهما بالمدينة، وتعرفت على معالمها الرئيسية، واستقر بى المقام فى مسكن مناسب، واستتبت أمورى فى عملى بمستشفى

جايز، وحان الوقت لتلحق بى زوجتى التى كانت قد تخلفت عنى فى السفر من القاهرة إلى لندن لإتمام بعض الاجراءات.

وكان وصولها من مصر بطريق البحر الطويل على إحدى البواخر الضخمة التى كانت تصل إلى ميناء لندن وتقف عند مدخل نهر التيمس عند محطة تيلبرى Tilbury، وكان يتعين علىّ لذلك أن أستقل قطارا فى الفجر من وسط لندن إلى تيلبرى لأستقبلها هناك يوم وصولها...

عندما وصل بى القطار فى الصباح الباكر إلى الميناء، كان علىّ أن أسيرعلى قدمى مسافة قصيرة قطعتها فى دقائق معدودة بين محطة القطار ورصيف الميناء ...

واستقبلت زوجتى عند الرصيف، ثم كان من الضرورى- وهىتحمل معها حقائب السفر – أن نعود معا إلى محطة القطار العائد إلى لندن بسيارة تاكسى وليس سيرا على الأقدام كما حضرت وحدى ... ووجدنا التاكسى المطلوب بسهولة – ولم تستغرق رحلته بين رصيف الميناء ومحطة السكة الحديد فى الواقع إلا حوالى ثلاثة دقائق

... وقبل أن ننزل الحقائب من السيارة هممت بدفع الأجرة للسائق، ولم يكن التاكسى بعداد كما هو الحال فى وسط مدينة لندن ... وفوجئت بأن السائق يطلب جنيها كاملا أجرة للمشوار الذى لم يستغرق سوى تلك الدقائق المعدودة ... كان الجنيه الاسترلينى فى ذلك الوقت مبلغا ضخما، وقدرت من جانبى أنه أكثر مما يجب، وكان من المرجح أن أدفع المبلغ بدون مناقشة لوأننى كنت قد وصلت إلى البلاد لأول مرة، فالغريب دائما جاهل بالأمور، ومن السهل أن يخضع للأمر الواقع فهو لايعرف لنفسه سبيلا آخر ...

غير أننى لم أكن وقتها فى مثل هذا الموقف، فقد كان وصولى قبل ذلك بفترة قد أكسبنى شعورا بالثقة، والإحاطة الواعية بما حولى من أمور، خاصة وأننى كنت قد تعاملت بالفعل من قبل مع التاكسيات فى لندن – ومن ذلك أننى كنت قد نقلت حقائبى منذ أيام قليلة سابقة من الفندق الذى نزلت فيه عند وصولى لأول مرة وهو فى غرب

المدينة إلى مسكنى الجديد فى شرقها، ولم أدفع وقتئذ سوى جنيه واحد فى مشوار استغرق مايقرب من ثلثى الساعة عبر مدينة لندن الكبيرة .

وهكذا أحسست أننى قد أكون محل ابتزاز من سائق التاكسى، الذى كان من الواضح أنه يظننى قد وصلت لتوى إلى إنجلترا لأول مرة.

بدأت مناقشتى للسائق معترضا بحذر شديد، فلم أجده يتمتع بالهدوء الانجليزى والأدب المشهور عن سائقى التاكسى الإنجليز فى تلك الأيام، بل على العكس من ذلك كان صفيقا بدرجة واضحة .. وعندما تلفتُ حولى لعلنى أن أستنجد بمن يدلنى علىالأقل على وجه الصواب فى تقدير الأجرة، إذ قد أكون مخطئا فى تقديرى، فلا أظلم الرجل وأرتكب عملا لايليق ..وجدت أمامى أحد عمال المحطة التى كانت مقفرة تماما من الناس ...

سألته أن يرشدنى عما إذا كانت تلك الأجرة التى طلبها سائق التاكسى هىالأجرة المعتادة فى مثل ذلك

المكان، . . . وجاءنى الرد باردا برودا انجليزيا حقا، لايقل عن برودة ذلك الصباح المبكر، " انها سيارته . . . " ولم يزد عن ذلك حرفا . . .

وكان من الواضح أن الرد غير موضوعى، ولا يجيب عن سؤالى . . . ولكن المهم أنه لم يكن ينتصر لوجهة نظرى فسلمت أمرى لله وقررت أن أرضخ.وفجأة انشقت الأرض، وظهر الكونستابل ذو القلنسوة السوداء بمشيته التقليدية البطيئة . . وكانت حلاوة الروح - أو قل حلاوة الحرص على عدم فقد جنيه كامل مرة واحدة - فقد كان الجنيه يمثل جزءا مهما من ميزانيتى الشهرية - ويكفى أن تعلم وقتها أنه من باب الاستثناء وبشق الأنفس وافقت الحكومة المصرية على أن تحول لزوجتى شهريا مبلغ خمسة عشر جنيها بالاضافة لمرتب المنحة المخصصة لى لمقابلة نفقات معيشتها معى فى انجلترا . . .

قدمت نفسى لرجل البوليس " أنا الدكتور فلان . . . ، حكايتى مع السيد سائق التاكسى هى كذا وكذا . . .

وأنا أرجو أن تخبرنى ما إذا كان الأجر المطلوب مناسبا، أم أن السائق يبالغ ويستغل جهلى ...

وجاء الرد حاسما قاطعا : "تعالى معى ... "

وذهبنا إلى سائق التاكسى فبادره الكونستابل " هل طلبت من هذا السيد جنيها أجر التوصيلة ؟ " وعندما جاء رد السائق بالايجاب، وجه الكونستابل إلى كل منا-السائق وأنا -أمرا بأن يخرج كل منا ورقة وقلما، ويكتب اسمه وعنوانه ... ففعلت، وفعل السائق نفس الشىء، دون أى اعتراض من أحدنا، وقبل أن أفهم مايريد من وراء ذلك مد الكونستابل كلتا يديه، فتناول باليمنى ورقتى وعليها إسمى وعنوانى، وباليسرى ورقة السائق ... ثم قاطع ذراعيه بحركة مسرحية، وسلم كلا منا الورقة التى كتبها الطرف الآخر، وبدا عليه وكأنما قد أنهى مهمته ... غير أننى أصبت بالارتباك عندما وجه إلى الحديث فى هدوء شديد " تستطيع الآن أن تنصرف إلى قطارك .." فقاطعته "وكيف إذن أدفع للسائق أجره ... وكم أدفع له ... ؟ "

وجاء لى الجواب فى حزم " إنك لـــن تدفـــع شـــيئا ويستطيع هو أن يطلب أجـــره عـــن طريـــق المحكمـــة إذا أراد ... " وعلى الفور حاولت أن أعـــترض علـــى هـــذا التصرف، فليس هذا بالطبع ما قصدته، بـــل كـــل ماطلبتـــه أن أدفع الأجر العـــادل والمعقـــول بـــدون إســـتغلال ... ولكن نظرة صارمة مـــن الكونســـتابل، وكـــانت لا تخلـــو فى ثناياها من ابتسامة صداقة رقيقة، أوضحـــت لـــى أنـــه لاسبيل لمناقشة هذا القـــرار ..

وقبل أن أغادر المكـــان تاركـــا ســـائق التاكســـى يكاد أن يتمزق غيظـــا، دون أن يتفـــوه بكلمـــة واحـــدة أو يبدى أى اعتراض، أتبعنى الكونســـتابل المنقـــذ بنصيحتـــه: "عندما يصلك استدعاء المحكمـــة، يحســـن أن تســـتعين بمحـــام ..."

ماشـــاء الله ..! : محكمـــة، ومحـــامى،وقضيـــة من أجل خلاف على أجرة تاكســـى، وربمـــا يضيـــع فيـــها يوم أو عدة أيام، أو تبقى القضيـــة معلقـــة لعـــدة شـــهور

أو سنوات كما يحدث فــى محاكمنـــا ٠٠،ولكن لـــم لا٠٠؟

إنها مســـألة مبـدأ، مســألة عدالـــة وإنضبـــاط ـرفـض للاستغلال٠٠٠وأصبحت أتلهف علــى وصــول إســتدعائى للمحكمـــة، حتــى أتمتــع علــى الأقــل بمشـــاهدة العــدل البريطانى، وكيــــف يعـــالجون مثــل هــذه الأمــور التــى تتناول مسائل مبدئية،٠٠ ولشد ما أســفت لأن مثــل هــذا الاستدعاء لــم يصلنــى علــى الإطـــلاق ٠٠وكـــان مــن الواضح أن الســـائق كـــان أعقــل مــن أن يضيـــع وقتـــه وجهده فى قضية يبدو أنه ســـوف يخســر فيـــها بـــالقطع أكثر مما يكســـب ٠

ولقد مر على هذا الحادث ما يقـــرب مـــن أربعيـــن عـــام تغـــيرت فيـــهاالدنيا٠٠ أصبـــــح فيـــــها الجنيـــــه الاسترلينى بطـــل هــذه القصـــة ومحورهـــا الرئيســـى لا يساوى سوى بضعـــة قـــروش، وتغـــيرت فيـــها أخـــلاق الانجليز على ما يبدو، فلم يعد ذلك الســـائق هـــو العنصـــر الشاذ بين سائقى التاكسى الانجلـــيز، بـــل أن مثلـــه علـــى

الأرجح هم الغالبية الآن ٠٠ولقد زرت لندن عدة مرات فى أعوام تالية، وشاهدت التطور المؤسف فى طباع الانجليز، غير أننى والحق يقال- لم أجد أن رجل البوليس الانجليزى قد انحرف بدرجة تذكر عن سلوكه التقليدى،ومشيته المحترمة ومظهره السوى، ونظرته الجادة الصارمة ٠٠ وأغلب ظنى أنه عند الأزمات الطارئة سيكون معينا أيضا ٠٠ ولربما نحظى منه ببعض المجاملة أو المحاباة نتيجة للمحبة التقليدية بين رجل الشرطة والطبيب ٠٠

حتى ولو كان طبيبا وافدا من بلد غريب٠٠٠

الفصل الثالث

المريض عند الإنجليز



للمريض عند الانجليز
احترامه كإنسان .

وهم لايحترمون جسده فقط، وإنما يحترمون أيضا عقله ومشاعره . . .

وجريمة كبرى أن تعامل مريضا - حتى ولو كان من مرضى الأقسام المجانية - بغير تقدير لهذه الاعتبارات الإنسانية الأساسية .

وأساتذة الطب يصرون على زرع هذه القيم في أذهان طلاب الطب، وهم لايرحمون طالبا يقصر عن استيعاب تلك القيم . . .

والمتقدم لأحد الامتحانات مثلا قد يرسب بعنف في هذا الامتحان، إذا وجدوه يكشف على المريض أثناء الامتحان بطريقة يشتبه منها بأنه لايراعى هذه الحرمات الضرورية لمشاعر المريض - فهو راسب لا محالة - مهما كانت درجة علمه-إن لم يكن مهذبا فى إجراء الكشف الطبى على المريض . .

بل إننى سمعت عن طبيب رسب فى امتحان زمالة كلية الأطباء الملكية لمجرد أنه فتح نورا مبهرا من منظار قاع العين فجأة فى عين مريض عند الكشف عليه أثناء الامتحان، دون أن يسبق ذلك بتنبيه المريض وشرح طبيعة ما سيتعرض له من فحص، فسبب ذلك ازعاجا بسيطا للمريض ..

والمريض لذلك يجب أن يفهم تقريبا كل ماسوف يتعرض له مقدما .. وهنا تأتى مشكلة من مشاكل البحث العلمى، الذى قد تبدأ بعض خطواته الأولى فى كثير من الأحيان بتجارب على الحيوان قبل أن يجرى تطبيقها على الإنسان، غير أنه لابد وأن تأتى بعد ذلك مرحلة من التجربة على الإنسان ذاته وقد لا تكون لإحدى هذه التجارب فائدة مباشرة للشخص الذى تجرى عليه التجربة وقت إجرائها وانما يستفيد من نتائجها آلاف الناس بعد ذلك ..

وهنا تبرز قضية هامة .. هل لابد أن يستفيد المريض مما يتعرض له من تجربة حتى ولو من قبيل

الاحتمال بدرجة أو بأخرى؟ وهل يجب أن يكون هذاالمريض علىعلم مسبق بالتجربة ومتطوعـــا لــها،عالمــا بدرجـــة واحتمال إفادته منها؟ ..

هذا على فرض أنها تكون تجربة مأمونة العواقـــب بالنسبة لسلامة المريض أصلا ..

ولقد عملت فى مستشفى جايز بوحدة من وحـــدات القسم الباطنى يطلق عليها "قسم الطب التجريبى " . والطـب التجريبى فى مفهومهم هنالك ليس قـــاصرا علـــى تجـارب الحيوان وإنما شاملا لما يجرى من بحوث علـــى الإنســان أيضا .. وكان على أقوم ضمن البحـــوث التـــى أجريتـــها هناك- بتجربة استخدام عقار جديد قد يؤدى إلى تحسين فى وظائف الجسم لدى مرضى السكر .. ومرض السكر كـــان وقتئذ أحد الاهتمامات الرئيسية لبحوث قسم الطب التجريبى بمستشفى جايز، ومن هناك بدأ اهتمامى بذلك الاتجاه مـــن البحوث الطبية .

ولازلت حتى اليوم أحتفظ بصورة من خطاب كان علينا أن نرسله لمريضة بالسكر، كنا نعتقد أننا بحاجة لتجربة العقار الجديد عليها.

يقول الخطاب بالنص :

" عزيزتى مس سميدلى...

أكتب إليك لأننا سمعنا مؤخرا عن طريق صديق فى أمريكا عن مركب ينتج هناك وأشعر أننا يجب أن نجربه فى حالتك،وإسمه(....) وهو عبارة عن مادة طبيعية موجودة فى الجسم، وهو لم ينتج بوجه خاص لعلاج السكر،ولكن التقارير تشير إلى أن له تأثيرا فى تقليل الشعور بالتعب .. والذى يثير اهتمامى هو أننى عندما فحصت دمك وجدت كمية كبيرة من حمض البيروفيك، وهذه المادة بالذات تزيد فى حالات التعب العضلى – وحيث أننا استطعنا الحصول على كمية محدودة من هذا المركب فاننى أظن أنه يحسن تجربتها معك، لنرى ماإذا كان يمكن أن يؤدى إلى إنقاص مادة البيروفات فى الدم عندك.

وهى تعطى بالفم، وجميع المعلومات تشير إلى أنـــها مادة مأمونة تماما، وإذا رغبت فى تجربـــة هـــذا المركـــب فيعنى ذلك أنه لابد من حضورك لإجراء بعض الاختبـــارات عن الجلوكوز والانسولين فى جسمك قبل إعطائك العقـــار، وسوف تكرر هذه الاختبارات بعد أسبوع ثم بعد شهر مـــن العلاج، والاختبارات سوف تجـــرى قبـــل تنـــاول الإفطـــار أوالانسولين، وكل اختبار سيحتاج لأخذ ثلاثة عينات مـــن وريدك، وسيقوم الدكتور م٠عرب الذى يعمل معى فى هـــذا البحث بأخذ العينات بنفسه .

أرجو أن تكتبى إلينا ردك فى خطاب وترسليه فـــى المظروف المعنون المرفق وبه طابع البريد- إذا كان لديـــك استعداد لذلك، مع أطيب تمنياتنا لك بالعام الجديد٠٠٠٠،،

أما التوقيع فهو بإسم الأستاذ جون بترفيلد -رئيس القسم شخصيا[١]

وكان هذا البحث يخصنى، غير أن ضرورة إقناع المريضة بالتعاون معى كانت تستلزم طمأنتها من أعلى مستوى ...

وكان من الطبيعى أن أتعلم هذا الأسلوب فى التعامل مع المرضى عند إجراء البحوث الطبية عليهم ... وتشاء المصادفات عند إجراء هذه البحوث أن تحدث بعض المفارقات ... وكان بعضها طريفا حقا، أما البعض الآخر فقد كان دراميا قاسيا كان على أن أجرى ضمن ماقمت به من بحوث، دراسة على الدورة الدموية فى الأطراف، وكان ذلك يحتاج لوضع المريض فى أحد مراحل التجربة جالسا فى مايشبه الحمام (البانيو) بحيث يغمر الماء الساخن

---

(١) الأستاذ جون بترفيلد كان رئيسا للقسم فى الستينات ثم مديرا لجامعة نوتنجهام ثم أصبح اللورد بترفيلد بعد ذلك .

ساقيه، ثم نقيس سريان الدورة الدموية فى أصابع يديـــه، وكانت التجربة تستمر خمسا وأربعين دقيقة، وفـــى إحـــدى مراحلها يتصبب المريض عرقا.

وكان لازما أن تجرى هذه التجارب على عدد مـــن المرضى وعدد آخر من الأصحاء للمقارنة، وهو الأســـلوب المتبع دائما فى البحوث العلمية ..

وبـــدأت أبحـــث عـــن متطوعيـــن مـــن الأصحـــاء لإستخدامهم فى التجربة، وفى بعض الأحيان يجـــد البـــاحث صعوبة فى الحصول على العدد الذى يلزمه مـــن الأصحـــاء أكثر مما يجد فى الحصول على المرضى ... فما كان مـــن الأستاذ بترفيلد رئيس القسم إلا أن وجدته يعرض علـــى أن يكون هو نفسه أول المتطوعين لذلك .. وكان منظـــره طريفا حقا- وهو يجلس فى المعمل فيمـــا يشـــبه البـــانيو الساخن، ملتفا ببطانية ويتصبب عرقا... وتمت التجربـــة فى جو مرح للغاية.. وكان من الطبيعى بعد ذلك أن لا أجد

أية صعوبة في إقناع عـدد كبـير مـن الأطبـاء الزمـلاء والمساعدين الفنيين بالقسم للتطوع لاجراء التجارب عليـهم بعد ذلك ٠٠٠لكن الأمر لم يكن دائما بهذه الطرافة ٠٠

فعندما أردت أن اطبق التجربة ذاتها على عدد مـن المرضى المصابين بنوع معين من أمراض القلب الخلقيـة، وأمراض الصدر المزمنة، ذهبت لأحصل على قائمة بأسـماء مـايقرب مـن ثلاثيـن مريضـا مـن سـجلات المستشفى٠والسجلات هناك مبوبة تبويبا دقيقا بحيث يسهل على الباحث انتقاء أى نوع من الأمراض، وسرعان مايجد أمامه بيانا وافيا بكل حـالات المصـابين بـهذا المـرض وعناوينهم٠٠٠كان ذلك قبل انتشار اسـتخدام الكومبيوتـر لأداء هذه المهمة.

وأعددت خطابات رسمية وشخصية لهؤلاء النـاس جميعا، ووقعتها باسمى وشرحت لهم فيها الأمر باختصـار، وكنت أقدم نفسى فى كل خطاب كباحث علمى يعمل فى قسم كذا برئاسة الأستاذ بترفيلد، وأرغب فى عمل الدراسة التـى

تقتضى كذا وكذا، وأن التجربة سـوف تستغرق حوالـى ساعة،وأننى سوف أرسل للمريض سيارة المستشفى لنقلـه اذا أراد..

ولم أكن أنسى أن أضع بجانب توقيعى صفـا مـن أسماء الدرجات العلمية التى أحملها حتى يطمئن المريـض إلى مستوى من يخاطبه..!

وكانت جميع رسائلى تحظى برد بصورة أو باخرى، وكانت نسبة الموافقين من المرضى على إجراء التجربـة تزيد على ثمانين فى المائة منـهم- إلا أن رسـالتين مـن رسائل الرد التى وصلتنى لن أنساهما على الأطلاق...

تصببت عرقا من الخجل وأنا أقـرأ رسـالة الـرد الأولى، فقد كانت مهذبة وساخرة وبسيطة:

"عزيزى الدكتور.... كان يسعدنى أن أستجيب لك وأشارك فى دراستك التى لا أشك أنها مفيدة جدا ومثـيرة، وأنت تريد أن تضع ساقى فى حمام ساخن أثناء التجربـة. وهذا جميل، وكم كنت أتمنى أن أستطيع ذلك...

ولكنك تعلم انكم فى مستشفى جايز قد قمتم بعمليات بتر لساقى منذ سنتين ،، ولهذا فاننى آسف ،،"،

كانت غلطتى واضحة ومخجلة، ذلك أننى اكتفيت بالحصول على اسم المريض وعنوانه فراسلته دون أن أكلف نفسى عناء المزيد من فحص ملفه الشخصى الموجود بالمستشفى لمراجعته مراجعة دقيقة-كانت بغير شك سوف تنقذنى من الحرج والإساءة الى شعور هذا المريض، فقد كان الملف يحوى بالفعل بيانات عن عمليةالبتر التى أجريت لساقيه فى نفس المستشفى،

ولم تمض أيام قليلة بعد ذلك حتى داهمنى الرد على الرسالة الأخرى ،،

وكانت كاتبة الرد والدة المريضة التى أرسلت رسالتى باسمها، كانت رسالة مهذبة أيضا، تعتذر فيها الوالدة لأن المريضة قد توفيت منذ عام سابق ؛ وهى بذلك لن تستطيع المشاركة فى تجاربى ،،،

وكان الدرس بالنسبة لى موجعا .. فقد تسببت عدم الدقة من جانبى فى ايذاء شعور بعض الناس...

و مع ذلك فالغريب أن كلا من صاحبى الاعتذارين قد تجشم عناء الرد على، بالرغم مما كان فى ذلك من إيلام ولا شك لهما... لكنه التصرف الحضارى الذى يثير الإعجاب.فالانجليزى- أوأى إنسان آخر متحضر - عندما يتلقى رسالة مهذبة أو أمينة وواضحة تطلب منه التعاون فى سبيل البحث العلمى أو أى عمل بنّاء فى أسلوب محترم، بانه يقابل ذلك باحترام متبادل فيجشم نفسه عناء الرد حتى لو كان فى مثل هذه الظروف...

وغنى عن الذكر أن أصف رسائل الاعتذار الشديد التى بادرت بارسالها بعد ذلك للأسرتين .

ولا أستطيع أن أمنع نفسى من المقارنة بمواقف أخرى، ترتبط بعاداتنا فى تغذية سلة المهملات بما يصلنا من مكاتبات دون أن نهتم بالردعلى ماقد يكون جادا منها .

أما المكاتبات الحكومية فلها حديث آخر، فقد تصلك احدى رسائل الحكومة تطلب منك أن تفعل كذا وكيت، وتحذرك إن لم تفعل بأن يحدث لك مالا تحمد عقباه من الوقوع تحت طائلة القانون، أما اذا كتبت أنت مكاتبة إلى جهة حكومية مسئولة، وقد يكون فيها استفسار أو إقتراح مفيد بنّاء- فالأغلب أنك لن تتلقى ردا على الإطلاق، وعليك حينئذ أن تستنتج مفهوم الرد كيفما تشاء ...

الفصل الرابع

لقاءات مع الإنجليز



لقاءات مع الإنجليز

الإنجليز.. قوم دأبنا على أن نصفهم بالبرود ... ونحن لسنا وحدنا الذين نصفهم بهذه الصفة ؛ فكل شعوب الأرض وصفتهم بذلك، وكثير من القصص الأدبية تضم فى طياتها عبارة هنا أو تلميحا هناك تعبر عن هذا المفهوم العام.

وبقدر ماآمنت بهذا التعميم بقدر ماتهيأت أيضا الفرص من خلال الاختلاط المباشر بأفراد الشعب الانجليزى أن تؤكد لى أيضا بأن هذا التعميم ليس صحيحا بصفة مطلقة، فمن الممكن جدا أن يكون بعض أفراد من هذا الشعب، أو جماعات منه، ودودين للغاية، تكتسب صداقتهم بسهولة ويسر.

ويمكن لهذه الصداقة أن تستمر بعد ذلك وتتسم بالمودة والصدق والحرارة .. وأول مراحل الصداقة تنشأ باللقاءات بين الناس، وصدق شاعرنا العظيم شوقى عندما يقول " نظرة فابتسامة فسلام، فكلام فموعد فلقاء ... "

فاللقاء هو آخر الطريق للتعارف وأول الطريق لما بعد ذلك من صداقة .

ولقد أتيح لى فى أوائل الستينيات أن ألاقى جماعات من الانجليز فى مناسبات مختلفة،تركت فى مجموعها لدى انطباعات متعارضة، من الإيمان بالبرود الانجليزى حقا من ناحية، وبحرارة الصداقة والتفاهم التى يمكن أن تقوم بين الناس من شعوب مختلفة- بما فى ذلك الانجليز أنفسهم - من ناحية أخرى . .

والإنجليز كشعب متحضر ومنظم فى حياته، يحرصون على تهيئة اللقاءات التى تمهد لتكوين تلك الصداقات، وخلق المناسبات التى تمكن من هذه اللقاءات .

ولعلهم فى ذلك يعلمون أن ترك الصداقات كى تنشأ ذاتيا من لقاءات عابرة قد يصطدم بما عرف عنهم من برود تقليدى، ولذلك فأنهم يحرصون على إيجاد العامل الوسيط، الذى قد يدخل فى التفاعل بين طرفين ليحول اللقاء إلى صداقة .

ولعلنا إذا تصورنا أن مصريا تقابل مع إيطالى أو يونانى مثلا فى أحد دواوين قطار مسافر وظلا معا ساعتين خلال رحلة القطار، فإن احتمال أن يتجاذبا أطراف الحديث قبل أن يفترقا هو احتمال كبير، ولن يعجز الطرفان عن أن يجدا وسيلة لبدإ الاتصال ؛ حتى ولو وقف حاجز اللغة بينهما، فالناس دائما يجدون فى لغة الإشارة أداة ناجحة لذلك، ثم أن كلمة من هنا وأخرى من هناك بأى لغة من لغات الأرض قد تشابه مقابلها فى اللغة الأخرى فتكون كفيلة بتهيئة وسيلة للتفاهم ...

أما إذا أنت جالست انجليزيا صميما، فحتى لوكنت تتكلم الانجليزية بطلاقة فان المفهوم العام هو أنه سيكون هناك حاجز البرود الانجليزى التقليدى يحول بينكما وبين التعارف أثناء الرحلة ...

وأما إذا كان المسافران انجليزيان، فالأغلب والمنتظر أن يفتح كل منهما صحيفة، ينكب على مطالعتها

دون أن يوجه كلمة واحدة إلى رفيقه حتى لحظة الفراق . . .

وإذا نحيت جانبا العلاقات مع زملاء العمل،وسوف نتحدث عن هذا حديثا آخر، فقد عشت تجارب عديدة فى لقاءاتى مع الانجليز، أختار هنا منها خمسة نماذج، حدثت فى ظروف مختلفة، كنت فيها طرفا، وكانت أجهزة المجلس البريطانى هى ذلك العامل الوسيط النشيط الذى يعمل بدأب لتحقيق أحد أهداف قيامه، وهو تهيئة وسائل الاتصال بين أفراد الشعب البريطانى وبين أبناء الشعوب الأخرى، من خلال تنظيم لقاءات بين الوافدين عبر البحار وبين أهل البلاد، ليس فقط فى محيط عملهم وإنما خارج محيط العمل أيضا . . .

والنموذج الأول بسيط للغاية، ومباشر فى أسلوبه، فأنت تتلقى دعوة لحفلة استقبال تنظمها إحدى الكليات أو الجامعات وتدعو لها عددا من الوافدين من جميع أنحاء العالم . وهناك تختلط الوفود . . . ناس من مختلف

الجنسيات، من أوروبا وأمريكا وأفريقيا وآسيا ٠٠٠ ولقد دعيت بمجرد وصولى إلى لندن إلى أحد هذه اللقاءات في كلية سبيرجون Spurgeon College ٠ وفى مثل هذا اللقاء تجد نفسك بين قوم يتحدثون جميعا اللغة الانجليزية، وتستطيع في مثل ذلك الجو أن تتصرف بإحدى طرق ثلاث ؛ الأولى أن تكون خجولا منطويا على نفسك، فلا تلاقى أحدا، ولا تتحدث إلى أحد، وإنما تنظر حولك وتراقب فى سكون، وقد تتعلم من ذلك شيئا – أو لاتخرج على الإطلاق من هذا اللقاء إلا بضياع الوقت والقليل جدا من التجربة٠٠

والثانية–أن تنتهز الفرصة لتلقى زميلا مصريا آخر يعمل ويدرس فى جامعةأخرى، فتكون فرصة طيبه لتتعرف إليه، وتبدآن معا زمالة مشتركة ؛ قد تقوى كلا منكما فى المستقبل على تحمل مشاكل الغربة ؛ ويمر الوقت وأنتما تتحدثان معا، وسيكون الحديث بالطبع باللغة العربية٠٠٠ وتثرثران كلاما كان من الممكن جدا أن يتم فى النادى الثقافى المصرى أو فى دار السفارة المصرية٠٠٠

ولن يختلف الوضع كثيرا إن كان لقاؤك مع أخ من إحدى الدول العربية الشقيقة، فسرعان مايحن الدم للدم، والحديث يدور بعد ذلك بالطبع باللغة العربية أيضا .. وحصيلة التجربة من ذلك لاتكون صفرا، ولكنها بالطبع لن تكون محققة للهدف من حفل الاستقبال الذى خططوه بدقة لصالحك وصالح المجتمع البريطانى ذاته- وهو أن تتاح لك و للانجليز فرصة التفاهم الانسانى المشترك، فرصة لأن تفهم الناس الذين سوف تعيش بينهم عاما أو عدة أعوام، والذين سوف تتأثر، شئت أو لم تشأ- بثقافتهم وفلسفة حياتهم فيما أنت مقبل عليه من دراسة، وسيبقى لك وفيك أثر من هذه الثقافة زمنا طال أو قصر ..

أما الاحتمال الثالث فهو أن تكون لماحا ذكيا، ففى مثل هذه الحفلات المخططة لا بأس من أن تنتهز الفرصة كى تعلم بوجود مواطن مصرى أو شقيق عربى، وتتعرف عليه ثم تحددان معا طريقة للاتصال فيما بينكما فيما بعد لتقوية هذا الرباط، فى مكان وزمان آخر،ثم تنفق معظم

الوقت بعد ذلك فى التعرف على الناس من الشعوب الأخرى، سواء الانجليز أنفسهم أو من بين الزائرين الآخرين، كـــى تنمو لديك الخبرة، وتتسع آفاق التجربة، إبتداء من اتقـــان الحديث بالإنجليزية إلى أبعد مـــايمكن أن تثمـــره تجـــارب اللقاءات الحية بين البشر من مختلـــف الثقافـــات والأذواق والمشارب والعادات ..

ويبدو أن مخططي برامج اللقاء بين أفراد الشـــعب البريطاني وزائريهم من شعوب الأرض أذكى من أن يقتنعـوا بترك الأمور للصدفة وحدها، ولهذا فانهم لايكتفـــون بذلـــك النوع من حفلات الاستقبال، فهم ولا شك يعلمون أن هنـــاك دائما احتمالا بأن يتصف هؤلاء الوافدون بمثل ما ذكرت من انطوائية، أو تجمع ذاتى فيما بينهم دون أن يتحقق لقـاؤهم المباشر مع الإنجليز أنفسهم، ولهذا فهم يقيمـــون نموذجـــا ثانيا من هذه اللقاءات ... عشت منه تجربة مثيرة...

فقد تلقيت بعد وصولى ببضعة شهور، خطابا رقيقـــا يقول أن هناك نظاما لتمكين الوافدين من زيارة أفراد الشعب

البريطانى فىعقردارهم، وهو برنامج يطلقون عليه " قابل الشعب البريطانى" ‏‏.. وكثير من أفراد الشعب البريطانى يسعدهم أن يستضيفوا زوارا من شعوب أخرى لتناول الشاى معهم فى بيوتهم، حيث تكون هناك فرصة مباشرة متاحة لك كى تدخل البيت الانجليزى، وتتعارف مع الانجليز .

ولقد تنبهنا نحن المصريون إلى الأثر العميق والمباشر الذى تحدثه مثل هذه اللقاءات؛ فقامت فى بلادنا فى السنوات الأخيرة محاولات لإنشاء جمعيات أصدقاء السائح، لتحقق تنظيم لقاءات من هذا النوع بين أفراد مختارين من المصريين من أعضاء هذه الجمعيات يرحبون بدعوة السائحين فى بيوتهم أو نواديهم ...

وقد كانت لى تجربة مباشرة فى ذلك – فعندما تولى أستاذنا الدكتور أحمد السيد درويش رحمه الله وزارة السياحة بعد عمادة كلية طب الاسكندرية، طلب منى أن ننشىء فى الاسكندرية جمعية من هذا النوع،وتحمست جدا

لذلك ؛ وقامت الجمعية بالفعل وباشرت نشاطا طيبا ثم شغلتنا ظروف العمل عن الاستمرار فى هذا النشاط - إلا أن جمعية بهذا الاسم على ما أعتقد لا تزال تعمل بهمة ونشاط فى القاهرة وغيرها من المناطق السياحية .

وأعود إلى الدعوة التى تلقيتها لزيارة أسرة بريطانية فى قلب لندن، كانت الدعوة لى ولزوجتى معى، وعلمت في نفس الوقت أنها وجهت أيضا لأستاذ يابانى وزوجته ولثالث لا أذكر الآن من أى بلد جاء ؛ كانت البطاقة تقول أننا مدعوون للقاء مستر ومسز فلان - فى شارع كذا - لتناول الشاى من الساعة الرابعة إلى الساعة الخامسة والنصف بعد ظهر يوم كذا .. وذهبنا فى الموعد المحدد .. وكان اللقاء طيبا، وحارا جدا، وسيدة البيت سيدة إنجليزية مهذبة فى أواخر العقد الخامس من العمر متحدثة لبقة سألناها وسألتنا، وقابلنا أفراد الأسرة وتجاذبنا أطراف الحديث، وأحسسنا بمتعة حقيقية فى هذا اللقاء .

ومر الوقت سريعا، ولم نشعر بمروره، ونحن نحكى عن مصر بلدنا الحبيبة، ونجد الكل من حولنا يولوننا آذانا صاغية، يسألون ونحن نجيب، ونسألهم عن بلادهم وهم يجيبون ... ونعلم عن أحوال الانجليز وطباعهم الكثير..

ولعله من الطريف هنا ان تقارن بين طباعنا فى مصر عندما نقدم لضيوفنا طعاما أو شرابا فى منازلنا وبين طباعهم .. فنحن نلح على الضيف فى أن يتناول هذا أو ذاك، "ونعزم" عليه بإلحاح لنظهر مدى كرمنا وحفاوتنا به، أما هم فيقدمون لك نوعا من الطعام أو الشراب وقد يعرضون عليك الاستزادة منه بعد ذلك ؛ كأن تأخذ فنجانا ثانيا من الشاى أو قطعة إضافية من الكيك ...

وستكون مخطئا جدا إن كنت ترغب حقا فى الاستزادة ثم تتعمد أو تتصنع الثقل،كأن تعتذر بأدب حتى تتأكد من إصرارهم، أو لتطمئن إلى صدق كرمهم، فالأغلب أن مضيفك سوف يصدق أنك لاترغب حقا ... ولن يعيد عليك العرض أو يلح عليك ... وقد تكون محظوظا فتأخذ

فرصة ثانية وأخيرة عندما يقول لك "هل أنت واثق أنك لاتريد المزيد ؟ " ...فاذا ضيعت هذه الفرصة أيضا ولم تقبل المزيد على الفور فلاتلومن إلا نفسك على خروجك من الوليمة جوعانا أو عطشانا ..

وكنا نعلم عن هذه الصفات والتقاليد قبل تلبية الدعوة بالذات، فلم نضيع فرصة تناول الشاى الانجليزى وملحقاته اللذيذة فى ذلك اليوم ...

كانت المناقشات قد بلغت أوج حرارتها وكانت الجلسة ممتعة حقا، والجو مرحا ولطيفا، عندما وجدنا السيدة الانجليزية الرقيقة المهذبة، تنظر فجأة إلى ساعتها، ثم تنهض واقفة وهى لاتزال تبتسم ابتسامة رقيقة وتقول "الساعة الآن الخامسة والنصف .. أظن أنه يتعين عليكم الانصراف .."

كانت صدمة شديدة لنا ... أن ينتهى الاجتماع على هذه الصورة المفاجئة، وأن تأتى الرغبة فى إنهاء الضيافة من المضيف وليس من الضيف – كما هى عادتنا

وعادة كل شعوب الأرض ... صحيح أن بعض الضيوف قد يكونون ثقلاء-فلايراعون حرمة الوقت ولاظروف مضيفهم – مثلما يفعل بعضنا فى بلادنا الشرقية فى كثير من الأحوال،بل قد تكون الزيارة لمريض يحتاج للراحة ومع ذلك يطيل الزائر من زيارته دون أن يجرؤ المريض على لفت نظره إلى ذلك بهذا الأسلوب المباشر الصريح ...

ولم نكن يومها قد تعدينا حدود اللياقة، فالساعة لم تكن قد جاوزت الخامسة والنصف إلا بدقيقتين فقط .

ولكننى تعلمت درسا فى الانضباط ... وأهم من ذلك فقد رأيت نموذجا .. لا أستطيع أن أقول أنه شائع فى السلوك الانجليزى ؛ ولكنه على الأقل ولاشك مقبول لدىالذوق الشائع هناك . وأغلب ظنى أنه لو حدث لضيوف إنجليز – لما أثار أدنى ذرة من الحرج أو الارتباك أو الدهشة التى حدثت لنا جميعا وقتذاك ...

* * *

والنموذج الثالث الذى أتذكره من تلك اللقاءات الممتعة مع أفراد الشعب الانجليزى، جاء على شكل دعوة وصلتنى أيضا عن طريق وساطة من المجلس البريطانى.

والداعى هنا كان أحد نوادى الروتارى المنتشرة فروعها فى أرجاء العالم ومنتشرة أيضا فى مدن وأقاليم مصر ولابد أن هناك عدة فروع فى لندن الواسعة الأطراف.

ونوادى الروتارى لها فى ذاكرتى مكان عزيز - ولو أننى لم أحاول الإنضمام إليها فى يوم من الأيام - فقد دعانى أحد هذه النوادى عام ١٩٤٨ عندما كنت طالبا فى السنة الإعدادية بكلية الطب إلى حفل تكريم، وقالوا لى وقتها أن نادى روتارى الاسكندرية قد اختارنى لهذا التكريم لأننى كنت الطالب الأول فى ترتيب امتحان شهادة الثانوية العامة بمنطقة الاسكندرية وكانت وقتها تسمى بشهادة التوجيهية.

وأقيم الحفل فى المدرسة الثانوية التى حصلت على التوجيهية منها، وقدم لى الروتارى يومها جائزة

مالية قيمتـــها ثلاثـــون جنيـــها ٠٠ وكـــان هـــذا المبلـــغ بمعيـــار ذلـــك الوقـــت ضخمـــا جـــدا ٠٠ وقـــد غمرتنـــى السعادة بحفـــل التكريـــم الـــذى رأســـه نـــاظر المدرســـة وأعضـــاء روتـــارى الاســـكندرية ودعـــوا إليـــها أفـــراد أسرتى - غير أنى لم أكن سعيدا عنـــد تسـليمى الجـــائزة المالية، فقد كنت أتمنى أن تكـــون الجـــائزة علـــى شـــكل ميدالية مثلا أو أى شىء يمكن أن يـــدوم لأفخـــر بـــه فـــى مســـتقبل حيـــاتى، وهدانـــى تفكـــيرى وقتـــها أن أصنـــع بنفسى مايحقق هـــذا الغـــرض فقمـــت بتصويـــر الشـــيك الـــذى يحمـــل لـــى المبلـــغ ٠ والصـــورة الفوتوغرافيـــة للشيك الذى يحمل اســـمى - مـــازلت أحتفـــظ بـــها حتـــى اليوم ضمن أعز التذكـــارات.

ولهذا سعدت عندما وجدت نفسى مدعوا مرة أخرى للعشاء كضيف على نادى روتارى ديبتفورد Deptford فـــى يوم ٢٨فبرايرعام١٩٦٢ ٠ وكان مدعوا معى فـــى نفـــس الوقت ضيف آخرهو أستاذ جامعى من سيلان ٠٠٠

وعادت بى الذكريات إلى ماقبل ذلك بأربعة عشر عام. إلى حفلة روتارى الإسكندرية للشاب الصغير الطالب فى إعدادى الطب ..

ولنوادى الروتارى فى اجتماعاتهم تقاليد يعرفها جيدا كل من يحضرونها معهم فهم يمارسون أعمالهم البناءة لخدمة المجتمع فى تلك الاجتماعات، ويتناولون طعام الغداء أو العشاء، ويدعون بعد ذلك شخصية من الشخصيات التى يستضيفونها للحديث فى موضوع يثير اهتمامهم ..

وهكذا استقبلنى رئيس النادى فى ديبتفورد مرحبا، وتناولت العشاء مع الأعضاء بعد أن شهدت اجتماعهم - الذى لم يكن يختلف فى طقوسه عما شاهدته بعد ذلك من اجتماعات عديدة فى مصر - دعيت فى بعضها للحديث أكثر من مرة،وكنت قبل ذهابى إلى روتارى ديبتفورد أعلم أننى سوف أدعى لالقاء كلمة باعتبار أننى الضيف، وكنت أعد نفسى لأجد مدخلا مناسبا للحديث الذى سوف يتضمن أساسا الشكر على الضيافة. وقلت فى نفسى أننى ربما أستطيع أن

أبدا بأن أحكى لهم أيضا ذكرياتى مع الروتارى منذ فجر الشباب، وتعاطفى معه بالرغم من أننى لست عضوا فيه و قصة الشيك الذى أحتفظ به.

وقبل العشاء اقترب منى رئيس النادى وسألنى "أى موضوع سوف تحدثنا عنه؟ " ولم يكن فى ذهنى بالذات أى موضوع محدد، ولم أكن قد أعددت نفسى لذلك، ولكننى أسرعت قائلا " سوف أشكركم بالطبع، أما إذا أردتم موضوعا معينا فسوف يسعدنى أن أجيب على تساؤلاتكم عن مصر بلدى .." ولكن الرجل الماكر قال : " إسمع، إننى أريدك أن تحدثنا عن أزمة السويس " .

وكان ذلك غير معقول بالمرة – فقد كانت أزمة السويس Suez Crisis هى التعبير الذى أطلقه الانجليز على عدوانهم الذى اشتركوا فيه مع فرنسا وإسرائيل علينا عام ١٩٥٦ والذى اصطلحنا نحن على تسميته بالعدوان الثلاثى إثر قرار الحكومة المصرية بتأميم قناة السويس ..

وكانت المدة التى انقضت منذ ذلك العدوان على بلادنا حوالى ست سنوات ولكن ذكريات هذا العدوان المرير لم يكن من السهل أن ينساها أى مصرى - بل إننى فقدت فى هذه الحرب شابا من أقاربى هو شقيق زوجتى- وكان ضابطا استشهد فى ريعان الشباب فى ذلك العدوان ..

ولكن مرورالزمن لم يكن قد استطاع حتى ذلك الوقت أن ينسى الإنجليز - هم أيضا - تلك الأزمة التى عصفت بعد ذلك بحكومتهم وانتهت بسببها حياة مستر إيدن رئيس الوزراء السياسية .

كان الموقف حرجا للغاية فقلت لرئيس نادى الروتارى،هل هذا معقول ؟ أقوم لأشكركم على حفاوتكم بى فأتحدث عن موضوع حساس كهذا ..!

سوف لاتتفق وجهة نظرى على الإطلاق فيه معكم .. مالنا ومال السياسة فى هذا الجو اللطيف المفعم بالتفاهم والصداقة ..؟

كنت أود أن أعبر له بما يمكن أن نقوله فـــى مثــل هذه المناسبة باللغة العاميـــة البلــدى "ماتخلينـــا حبـــايب أحسن،،!"

ولكننى وجدت منه إصرارا غريبـــا علـــى إختيـــار هذا الموضوع بـــالذات فقلـــت لـــه "أنـــت المســئول - إذا تكهرب الجو "، ولم أكـــن بـــالطبع مـــن الســذاجة بحيــث أسمح للجو أن يتكهرب، ولكننى فـــى الوقـــت نفســـه لـــم أكن أملك إلا أن أعبر عن وجهـــة نظـــر بـــلادى ؛ وهـــذه الفرصة متاحة لى أمام نخبة من أرقـــى أفـــراد المجتمـــع البريطانى للحديث عـــن مصـــر أمنـــا العزيـــزة، وشـــرح وجهة نظرنا ،،،بهدوء، بدلا من الوقـــوف فـــى حديقـــة هايدبارك - والصيـــاح وســط جمـــهور قـــد يكـــون منـــه المثقف ومنه سواد النـــاس ،،،

كانت المعادلة صعبة ولكنى توكلت على الله وقبلـــت الحديث فى هذا الموضوع ،، وعندمـــا انتـــهى زميلـــى

الضيف الأستاذ السيلانى من كلمته قدمنى رئيس النادى للحديث ...

ووجدت نفسى قد طرحت تماما المدخل الذى كنت أنوى أن أبدأ به حديثى عن ذكرياتى مع الروتارى فى الاسكندرية وأختار بدلا من ذلك الدخول المباشر فى قلب الموضوع :

" لقد بدأ زميلى من سيلان حديثه الممتاز عن بلاده،فقال أنه عندما تذكر كلمة سيلان، فإن الانجليز يتذكرون على الفور الشاى السيلانى (لأن تناول الشاى مسألة تكاد تكون مقدسة فى حياة الشخص الانجليزى اليومية-وخاصة شاى بعد الظهر) ... أما أنا فلاشك عندى أنه عندما يذكر اسم مصرهذه الأيام فسوف تذكرون على الفور السويس ... أو على الأصح أزمة السويس ... " ودخلت فى الموضوع مباشرة ..

كان كل تركيزى فى الحديث على أن الشعب المصرى الذى آذاه العدوان على بلاده كان يتأسى دائما بما

يسمعه ويقرأ عنه فى الصحف والإذاعة والتلفزيون من وقفة الغالبية العظمى من أفراد الشعب البريطانى معه، واستنكارهم لأعمال الحكومة البريطانية، وماظهر من تواطئها فى ترتيب العدوان على مصر، فالمظاهرات الصاخبة التى كان يموج بها ميدان الطرف الأغر بلندن، والحركة الشعبية التى كان يقودها وقتذاك فيلسوف بريطانيا الشهير السير برتراند راسل كلها كانت موضع إعجاب وتقدير الشعب المصرى لأفراد الشعب البريطانى الذى استنكر هذا العمل.... "

وأعتقد أنها كانت خطة موفقة، فقد قلت وقتها كل ما أريده من نقد فى قالب من المديح للشعب الانجليزى وموقفه الأخلاقى الرائع خلال أزمة السويس ..

وأحسست أننى كسبت الجولة تماما .

وفى مثل هذه المواقف – لابد أن يكون سلوك المصرى الداعى لبلاده فى الخارج هو السلوك الذى لا يلبس ثوب العصبية والتشنج، فالشعوب المتحضرة وخاصة

العقول المستنيرة فيها تستطيع تماما أن تنصت لكلمة العقل والمنطق - وقد تختلف معك فى كثير أو قليل مما تـراه، ولكن الحوار الهادىء الذى يحترم فكر الطرف الآخر دائما ينتصر فى النهاية .

وحتى لو حاول الطرف الآخر أن يلجأ إلى أساليب الاستفزاز فى المناقشات السياسية أوالحساسة فان الداعية الحصيف لابد أن يضيع عليه الفرصة .

وقد حدث شىء من ذلك بالفعل فى هذا الاجتماع بالذات، فعندما ابتدأت مناقشتى كان من الواضح لى أن شخصا من بين الحاضرين لم يكن سعيدا بالجو السائد بين الحاضرين من اقتناع تماما بكل ماقلته عن مصر فى أزمة السويس، وماحققته مصر بعدها من انطلاق فى التنمية والتقدم فوجدته يسألنى وهو يتصور أنه يلقى قنبلة شديدة الإنفجار : " أنك قدمت لنا صورة عن التقدم الذى يحدث فى مصرالآن، ولكننى كنت هناك منذ أقل من سنة ووجدت أن الفلاح المصرى فى القرية عندكم لايزال يستعمل للإضاءة

شيئا بدائيا ... " - ثم وصف ماتطلق عليه في قرانا بمصباح "الشيخ على" ..

كانت مصر في الواقع يومها قد أعلنت إطلاق صواريخ من صنع مصر أسمتها القاهر والظافر. كما بدأت نهضة صناعية كبيرة ركزت عليها حديثي، ولم تكن صورة مصباح الشيخ على مما يتناسب مع تلك الخلفية المضيئة للنهضة المصرية .. ولكنني سرعان ماقلت " إن سنوات طويلة جدا من التخلف سوف تحتاج إلى عمل جبار لإزالة هذه الصورة البدائية، ولكن صحوة المصريين طالما أنها بدأت فإنها لاشك سوف تنهى كل هذا في يوم من الأيام .."

وأنا عندما أستعيد ذكريات هذا الحديث لأتذكر المحن والآلام التى عاناها بالفعل الريف المصرى المتخلف ومازال يعانى منها، ولا أتصور وجه المقارنة بينه وبين الريف الانجليزى الراقى الجميل .

ولكن مصر التى مرت بمزيد من الآلام والمحن من حقها أن تملك آمالا طويلة في صحوة لهذا الريف الحزين -

وهى آمال ليست بكاذبة- فقد بدأت الكهرباء تغطى ربوعه وحتى الطاقة الشمسية -قد عرفت طريقها إلى بعض قراه...

ولكن المشوار طويل طويل، ومالم يفعل المصريون مافعله ويفعله الانجليز وغيرهم من الشعوب التى بنت أوطانها بأيدى أبنائها وبأظافرهم وأسنانهم فان زمنا طويلا قد يمر قبل أن لانستطيع إلا أن نتوارى خجلا من أحوال الريف المصرى ...

ولم تكن كل الدعوات التى تلقيتها للقاء الانجليز من ذلك النوع الأرستقراطى العالى فقد تلقيت دعوة طريفة من مجموعة أخرى من الانجليز البسطاء ينتمون إلى منظمة يطلق عليها اسم توك TOC ولا أعرف ماذا تمثل هذه الحروف وكانت دعوتهم الغربية تقول :

عزيزى الدكتور ... لقد علمنا بوجودك فى انجلترا وسمعنا بعض المعلومات عنك، ويسعدنا أن توافق على زيارتنا للحديث معنا عن مصر ...

والحقيقة أننا جماعة بسيطة جدا، ونحن نجتمع فـى المساء لنتجاذب أطراف الحديث – وندخن ونشرب الشـاى معا ٠٠ ونعقد اجتماعناالأسبوعى فى ورشة نجارة، تكـون مشغولة جدا بالعمل فى الصباح، ولهذا فانك اذا وافقت على الحضور إلى اجتماعنا والتحدث إلينا – فنرجو أن لا تلبـس أفخر ثيابك ؛ فلا لزوم لذلك مطلقا، ونحن جميعا من الرجـال ٠٠٠٠ وسوف يشرفنا ويسعدنا أن تقبل دعوتنا ٠٠"

كان الخطاب ظريفا حقـا ويتسـم بـالصدق والبساطة، ومكتوبا باليد على ورق أنيق مطبوع باسـم النادى، والنادى فى بلدة تقع على بعد أميـال خـارج لندن – ويحتاج السفر اليها بالأوتوبيس الـذى يربـط لندن بالضواحى إلى حوالى سـاعة ونصـف السـاعة ٠ ولكننى لم أتردد لحظة واحدة فى الاستجابة وأرسـلت لهم أوافق على الموعد الذى حددوه وكان بعد حـوالى ثلاثة شهور من وصول تلك الدعـوة إلى ٠ وذهبـت بالفعل فى الموعد المحدد إلى دكان النجارة الذى وصفـوا

لى كيفية الوصول إليه بمنتهى الدقة فى خطاب لاحق، ولم أرتد أفخر ثيابى بالفعل ولكننى لم أذهب اليهم أيضا بأردئها ...

وكان اللقاء بعيدا كل البعد عما يمكن أن يوصف بالبرود الانجليزى فقد كان الترحيب بى حارا، ولمست فيه ما أكد لى شعورى المتكرر بأن الرجل الانجليزى البسيط أو المتوسط يضع الطبيب عموما فى منزلة عالية جدا .

و بادلتهم الشعور الإنسانى الصادق، وسعدت باللقاء و بالحديث معهم. كانوا حوالى خمسة عشر أغلبهم فوق سن الأربعين – وكنت بذلك أصغرالموجودين فى الاجتماع سنا .

ودار الحديث عن مصر الحضارة، ومصر التاريخ، وتدرج بنا إلى مصر الحاضر والمستقبل ؛ وكان لابد وأن ننزلق فى الحديث إلى السياسة .

قالوا لى بصراحة " لقد فرحنا بلقائك لأننا دعونا منذ عدة أسابيع ضيفا من إسرائيل حدثنا عن بلاده، وكان من الضرورى لنا أن نسمع وجهة النظر الأخرى من واحد من مصر . . . "

ولايمكن للإنسان المصرى المحب لوطنه، القادر على التصدى للدفاع عنه أن يهمل مثل هذه الفرصة كلما توفرت له، حتى بين هؤلاء الناس البسطاء، فكل واحد منهم له صوت لايقل عن صوت أى لورد بريطانى، والرأى العام هو مجموع هؤلاء الناس، والرأى العام البريطانى قوة رهيبة يحسب لها ألف حساب، والبحر الهادر ماهو إلا تجمع لقطرات من المياه . . .

ولعل ما أذكره جيدا من هذه المناقشة هو أن صاحبنا الاسرائيلى كان قد أذهلهم بما شرحه لهم من أن إسرائيل قد قامت بمعجزة تحويل صحراء النقب التى بقيت فى يد العرب مئات السنين فاستمرت تحت أقدامهم وأقدام جمالهم صحراء جرداء لاحياة فيها، ثم جاء الإسرائيليون

فحولوها بعد ذلك إلى جنات خضراء، فمن الذى يستحق البقاء فيها ... ؟ الذين تركوها تموت أم الذين بعثوا فيها الحياة الدافقة..؟

وكان لا بد من التصدى لهذه المغالطة السافرة، فنحن العرب مثلا لا نستطيع أن نطالب بتملك صحراء قاحلة كصحراء الأريزونا فى أمريكا، أو منطقة مستنقعات مثلا فى الجزر البريطانية بمجرد أن نحط رحالنا فيها ونستوطنها، ثم نعمل فيها ما نعمل لتتحول بعد ذلك إلى وطن لنا، ثم نقوم بطرد سكانه الأصليين من أمريكيين أو بريطانيين..

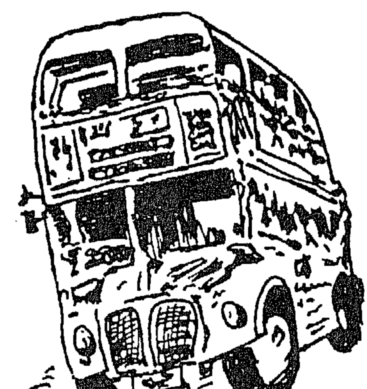
واستمر الحديث الطويل حتى همس أحدهم عندما جاء ذكر أن بريطانيا هى التى وضعت البذرة الأولى لقيام إسرائيل فى الوطن العربى ويتحتم عليها أن يكون لها دور فى تصحيح ذلك الوضع الظالم الذى أوجدت فيه العرب – همس قائلا " هل تعرف لماذا شجع الشعب البريطانى قيام إسرائيل .. صدقنى إن جزءاً كبيرا من دوافع ذلك بالنسبة للمواطن العادى –

هو رغبته في أن يرحل اليهود عن بريطانيا .. وليذهبوا بعد ذلك إلى حيثما يستطيعون أن يذهبوا ."

أما النموذج الخامس من لقاءاتى مع الإنجليز خارج نطاق زمالة العمل فقد كان في حفل العشاء الرسمى السنوى الذى يقيمه المجلس البريطانى للأعضاء الوافدين عبر البحار، ولهذا الحفل وما أعقبه من أحداث قصة أخرى، علقت بذاكرتى وحفرت فيها بصورة لايمكن أن تنمحى - وهى قصة تتعلق بالمواطنة والمواطن - وتستحق أن نوفيها حقا فى الفصل التالى .

الفصل الخامس

المواطن



المواطن ..

كلمة .. ترددها بين وقت وآخر من أوقات حيـاتك .. ولكنك ربما لن تعرف لها طعما حقيقيا، ولـن تشعر بدفئها المريح إلا اذا كنت تعيش غريبا فى بلد آخـر غـير وطنك .. وبالذات عندما تصطدم عواطفك بظروف خاصة تفتح عينيك وأذنيك على معان وقيم ربما تكون قد مـررت عليها من قبل مر الكرام .

وقد حدث لى مثل ذلك فى تلك الليلة التـى دعُيـت فيها إلى حفل العشاء السـنوى الـذى يقيمـه المجلس البريطانى لتكريم أعضاء البعثـات والوافديـن الدارسـين والأساتذة الزائرين من كل بقاع الأرض . كان ذلك فى إحدى ليالى شهر يوليو ١٩٦٢ ..

وأقيم الحفل فى كلية بدفورد التى تطل على رجنـت بارك ..

وكنت قد تلقيت الدعوة قبل ذلك ببضعـة أسـابيع، واشترطوا للحضور أن تكون البذلة غامقة اللون، ففصلـت

بذلـــة خاصة لهذه المناســـبة، وأن يكــون ربــاط العنـــق (الكرافتة) من النوع المميز لأعضاء المنح والمبعوثين عن طريق المجلس البريطانى - وهو تقليد لطيـــــف أعتقـــد أن الانجليز هم الذين ابتكروه للتعارف بيـــن أعضـــاء النــادى الواحد أوخريجى الجامعة الواحدة أو الذيـــن ينتمــون لأى مؤسسة، فكل منظمة لها رباطها المميز . وكانت الربطـــة المميزة للمجلس البريطانى من صناعة إحدى المؤسســات العريقة المتخصصة فى هذه الصناعة فى مدينة كمبردج .

وهذا الحفل السنوى يقام عادة برئاســـة شـــخصية كبيرة من شخصيات المجتمع، وكان رئيس الحفل يومها هو أحد أعضاء البرلمان البارزين وهو مستر بيتر توماس - وكيل وزارة الخارجية للشئون البرلمانية، وكان هناك أيضـــا عدد كبير من شخصيات الدولة، ورئيس المجلس البريطــانى وكان وقتها السير بول سنكلر .

و وجدت مكان مجلسى قد جاء فى المائدة الرئيسية إلى جوار زوجة رئيس الاجتماع، ولابد أنهم قـــد اختـــاروا

واحدا من ممثلى الدول المختلفة أو القارات المختلفة لأن يجلسوه فى المائدة الرئيسية، ولا أعلم لماذا وجدت نفسى فى المكان الأول من هذه المائدة - ربما يكون من قبيل الصدفة فاسمى يبدأ بحرف A، أو ربما لأى سبب آخر .. المهم أننى رفضت أى تفسير لذلك الاختيار سوى واحد فقط جاء على هواى فى ذلك الوقت .. فقد كنت عند قرب نهاية إقامتى فى لندن قد حققت نجاحا واضحا جدا فى عملى، وتسرب إلىّ بصورة مباشرة التقرير الممتاز الذى وُضع عن نشاطى فى الجامعة ؛ وكنت أعلم أننى موضع معاملة خاصة من المجلس البريطانى، وليس أدل على ذلك من تلك الرحلة الطويلة عبر المدن البريطانية التى منحت لى والتى تكفل المجلس بدفع كافة نفقاتها ...

وانتهى العشاء الذى كان فاخرا جدا ومهيبا للغاية، فقد كان الاحتفال السنوى هو الخامس عشر من نوعه، بالإضافة إلى أنه كان بمناسبة مرور ٢٥ عاما على إنشاء نظام المنح بالمجلس البريطانى، وكان الحفل إنجليزيا تقليديا

بأقصى مايمكن أن تراعى فيه التقاليد من اقتراح الأنخـــاب والمجاملات المتبادلة بين المضيفين من الشخصيات الكبيرة والوافدين من مختلف الأعمار والأجناس والألوان ٠

وعندما خرجت من الحفل بعد انتهائه كانت الســاعة حوالى العاشرة مساءا٠٠ كنت منتفخ الأوداج، أشعر أننــــى شخصية مهمة جدا ٠٠٠ولم لا فقد حققت فى بلاد الإنجلـيز نجاحا بارزا، وحظيت بتكريم واحترام يمسحان عن نفســـى ذكريات أليمة طالما عذبتنى ونحن فى سن الصبـــا ومقتبـل الشباب من نظرتنا إلى الانجليز على أنـــهم النـــاس الذيــن استعمروا بلادنا وأذاقونا أنواعا مختلفة مـــن الإذلال، فأنـــا اليوم مصرى عادى بسيط، أعامل من انجليز غير عـــاديين فى مراكزهم الاجتماعية العليا باحترام وتكريم !٠٠ مســألة تبعث فى النفس الثقة، أو إن شئت الحقيقة وبأمانة، فانـــها كانت تبعث فى نفسى وقتها مايمكن أن يوصـــف بـــالخيلاء وغرور الشباب المبالغ فيهما ٠٠٠

وكان لابد أن أعود إلى منزلى بعد ذلك بـــالأتوبيس فلم أكن أملك بالطبع سيارة، وصعدت إلى الدور العلوى مــن أتوبيس لندن الأحمر الشـــهير، ومضـــى بـــى الأوتوبيـــس مايقرب من ساعة كاملة - وأنا سارح بخيالى وأحلامى فــى المستقبل،ولم لا وقد خيل لى غرور الشباب أننى قد غــزوت انجلترا فى قلبها النابض لندن، وأصبحت فيها إنســـانا لـــه شأن كبير .

وصحوت من أحلام اليقظة عندمـــــا اقـــتربت مـــن محطتى فقمت لأستعد للنزول من الأتوبيس، و لأنـــزل مـــن الدور العلوى إلى الدور السفلى، كنت وقتئذ شارد الذهن فلم ألاحظ أن أشخاصا آخرين قد وقفوا أيضا وغادروا أماكنـــهم مثلى استعداد للنزول إلى الدور الأرضى.

كانت محطتى من المحطات الاختيارية فجذبت حبـــل الجرس قبل أن أسرع بالنزول حتى أضمن وصولى للبــــاب عند توقف الأتوبيس فى المحطة الاختيارية، وفـــى وســط شرودى لم أنتبه إلى أننى فى اندفاعى قد تخطيـــت رجـــلا

أمامى اعتقدت أولا أنه يستعد للمحطة الإجبارية العادية التى تلى محطتى، فهو لم يجذب حبل الجرس ولم يبـــد منـــه أى دليل على رغبته فى النزول فى المحطة الاختياريـــة التـــى سوف نصل إليها أولا .. ولكن الرجل لم يترك هـــذا الأمـــر يمر ببساطة، ولم يكتف بأن ينظر إلى نظرة ذات مغـــزى – كما يقولون– ليعبر عن استنكاره لأسلوبى الـــهمجى ! فـــى تخطيه فى الدور للنزول قبله ...

والانجليز كانوا حتى ذلك الوقت يقدســـون مســألة الدور والطوابير – ويكفى أن تتخطى دورك فـــى أى مكـــان لتتلقى من كل من حولك تلك النظرات القاسية التى تخـــترق جسمك ونفسك لتحطمك تحطيما، وهذا هو أسلوب العقـــاب التقليدى الهادىء فى أغلب الأحوال...ولكن هذا الرجل لم يكتف بذلك، فقد آثر أن يتحفنى أيضـــا ببعـــض العبـــارات القاسية . ولاشك أنه كان معذورا فأنىّ لى أن أرى نظراتـــه الجزائية وأنا أسير أمامه وهو خلفى و قد سبقته بـــالفعل، كما أن الدنيا كانت شبه مظلمة! .

كان الرجل حاسما ونطق بجملة واحدة " لقد أصبحت هـــذه البلاد مليئة بالأجانب ٠٠٠ " ولكنه أودع فى هـــذه الجملـــة القصيرة كل نغمات التحقير، ودق على كلمة الأجانب بشـدة، حتى أحسست أن هذه الكلمة طلقة رصاص صـــــدرت مـــن بندقية قاتلة اخترقت جسدى لتصيبنى فـــى صميـــم القلـــب ٠٠٠والرجل لم يزد على ذلك كلمة واحدة ٠٠٠

كنت أشعر بخطئى، وكان من الممكـــن أن أعتـــذر، وأشرح له باستفاضة و بأدب أننى أردت المحطة الاختيارية فاسرعت لهذا السبب لأننى لا أريد تعطيل الأتوبيـــس ٠٠٠ الخ، ولكننى كنت قد أرتج على لسانى فخرست تماما، ولـــم أنطق بكلمة واحدة، ونزلت بسرعة مـــن الأتوبيـــس إلـــى الطريق، ومن خلفى ذلك الرجل الانجليزى الذى شتمنى بـأن وصفنى بأننى " من الأجانب" ٠ ولم أســـتطع الـــرد علـــى ذلك ٠٠

وكان من الممكن أن لايكون الأمر بذى بـــال علـــى الإطلاق، فالانجليز معروفـــون باســـتخدام لفـــظ "أجنبـــى"

Foreigner للتعبير عن امتعاضهم وغطرستهم فى نفس الوقت، وعنهم تحكى النكتة المشهورة من أن انجليزيا صميما – عاد إلى وطنه بعد زيارة لإحدى البلاد الأوربية وعندما سألوه عما إذا كانت قد أعجبته قال : لا لم تعجبنى، وعندما سئل عن السبب–قال : إنها لاتطاق لأنها كانت مليئة بالأجانب .. It was full of bloody foreigners وهكذا وصلتنى رسالة الرجل الانجليزى، الذى كان مظهره يدل على أنه لاشىء على الإطلاق رجل من عامة الناس شتمنى .. ، ولكنه لم يطلق علىّ أى صفة سيئة، إنه وصفنى بأننى " أجنبى"، ولاأكثر ..

وهذا حقيقى تماما فأنا أجنبى فى هذه البلاد، وملامحى وشكلى لايمكن إلا أن يكونا لأجنبى– فلست أشقرا أزرق العينين مثل بعض مواطنينا المصريين الذين قد يختلط الأمر على بعض الناس فى أى مكان فيظنونهم من أجناس أخرى، أما أنا فلم أكن إلا مصريا بشكلى، وعلى الأكثر ربما يختلط الأمر على بعض الناس (وهذا ماحدث فعلا فى بعض

الاحيان) فقد يظنون أننى تركىأو إيرانى أو عربى من أى دولة أخرى غير مصر، أما أن يحسبنى أحدهم انجليزيا، فهذا مالم يحدث ولن يحدث أبدا ..

فلماذا إذن الأسى ؟ وماهو الخطأ فى أن أكون أجنبيا، أو أن يصفنى رجل انجليزى بأننى أجنبى؟ إن الرجل حتى لم يقل اننى **Bloody foreigner** كما يقول صفقاء الإنجليز ..

غير أن ظروف الزمان والمكان التى سمعت فيهما من يصفنى بأننى "أجنبى" كانت غير طبيعية بالنسبة لى، فها أنذا لتوى أعود من حفل تكريم خيل لى أننى نلت فيه نجومية خاصة بصفتى الشخصية وقدراتى الذاتية التى صورها لى خيالى و غرورى بأنها شىء ذو قيمة عظمى ومع ذلك ففى لحظة واحدة يأتى إلى مسامعى صوت كالرعد:

"أنت أجنبى"

نعم إننى أجنبـــى ... ولـــى الشـــرف أن أكـــون أجنبيا عندما أكون فى لندن أو فى أى مكـــان علـــى وجـــه الأرض -فأنا مصرى ولن أرضى عن مصريتـــى بديـــلا .

ولكنى المعنى واضح، فأنا فى مصر وحدها أكـــون المواطن ..

وأما فى انجلترا أو فى فرنسا أو أمريكا فأنا أجنبى، قد أكون ضيفا ... وقد أكون ضيفا معززا مكرمـــا ... ولكننى أبدا لست مواطنا، ومن يحاول أن يكـــون مواطنـــا بصورة أو بأخرى فإنه من المحتمل أن يكون مواطنا مـــن الدرجة الثانية .

إن المواطن الحقيقى هو الذى تربى فـــى وطنـــه ؛ ونشأ بين قومه، قلبه معهم، آماله من آمالهم، ومســـتقبله هو مستقبلهم و آلامه هى آلامهم ..

ومهما بعد المواطن عن الوطن تبقى روحه فى هـذا الوطن فهو فقط فى وطنه كالطفل فى حضن أمـــه، ومـــهما

علا شأنه فجذور المواطن الصالح مرتبطة بأرضه، وإنها للذة وأى لذة ان تكون فى وطنك وبين أهلك و مواطنيك ٠

وهذا الشعور يشتعل بالذات فى نفس المواطن ذى الجذور الضاربة فى تربة بلاده كلما عاد إلى وطنه بعد غيبة طويلة كانت أو قصيرة عنه ٠

إنك مهما بعدت عن الوطن، ومهما حظيت بمتعة السفر إلى مختلف الأوطان، أو مهما رأيت وسمعت من حضارة وتقدم بين الشعوب الأخرى، ومهما انبهرت بتكنولوجيا متقدمة فى مختلف البلاد، ومهما علا شانك بين أقوام آخرين، فأنت تشعر بالسعادة الحقة فقط عندما تطأ قدمك أرض الوطن فتنزع عنك صفة الأجنبى، أو السائح،أو الزائر أو الضيف، أو غير ذلك من الصفات المؤقتة لتعود : "المواطن" ٠٠ هكذا بكل بساطة تكتسب لقبا قد يظنه بعض السذج أمرا بسيطا ٠

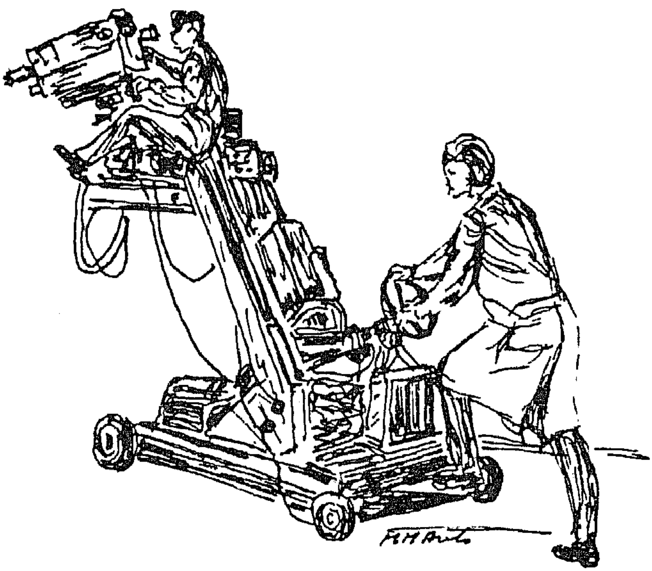
بل قد يحسبه بعض المنحرفين والشواذ – قليل الشأن – فيبدون الاحترام لصاحب مال أو جاه وافد من هذا

البلد أو ذلك، أكثر مما يبدون للمواطن الصالح، الذى لاتعدل فى نظرى قيمته مليونيرات العالم كله ..

وهكذا حفرت تلك الحادثة البسيطة التى أنزلتنى فى لحظة واحدة من خيلاء الغرور الكاذب،وأكدت لى صدق إحساسى بأن أحلى شىء فى الوجود هو أن يكون الإنسان مواطنا، وأن يكون له وطن يعتز به و يتألم لألمه، ويرتفع إلى أعلى قمة فى الدنيا، لا لشىء إلا ليخطف له من بريق النجوم باقة أمل، أو طاقة عمل يقدمها لهذا الوطن ...وفاء ومحبة وإعزازا ...

الفصل السادس

التلفزيون



التليفزيون

لى رابطة قديمة مع ذلك الجهاز العجيب، الذى تغلغلت آثاره الخطرة فى كافة أمــــور حياتنـــا ، وعندمـــا غادرت مصر عام ١٩٦١ – لم يكن لدينا بعد فـــــى مصـــر تليفزيون، وعندما عشت فـــى لنـــدن واســـتقرت أحوالـــى، وأصبح فى إمكانى أن أحصل على تليفزيون خاص بمســكنى – كان ذلك عن طريق الايجار، ولا أذكر الآن كم شلنا كـــان يكلفنى ذلك فى الأسبوع – ولكنه كان ولا شك مبلغا زهيـــدا يستطيع أى إنسان محدود الدخل أن يتحمله، ولم يكن هنـــاك ضرورة بالطبع لشراء جهاز خاص، بل قل أيضا لـــم يكـــن هناك أى إمكان مادى متاح لذلك ..!

ولم يكن التليفزيون بالطبع قد أصبح ملونا، كـــان لايزال أبيض وأسود فقط، ولكنه والحق يقال كان ســـاحرا، كان يمكن أن أدخل مسكنى فتشدنى برامجـــه الواحـــد بعـــد الآخر حتى تنتهى هذه البرامج عندمنتصف الليل، وكان مـــن العسير مقاومة ذلك، ولكن كـــان لابـــد أيضـــا مـــن هـــذه

المقاومة- فهناك بعد العودة فى المساء أعمال هامـــة لابـد من إنجازها.

كان أهم هذه الأعمال بـــالطبع مـــايتصل بشـئونى العلمية، تلك المهمة التى اغتربت من أجلها، فقد كان علـــى أن أكتب مسودات ماسوف ينشر من البحوث التى أقوم بـــها خلال النهار بمستشفى جايز، وأراجع النتائج ...والواقـــع أنه عندما قاربت مهمتى العلمية على الإنتـــهاء، أصبحـت النتائج العلمية لبحوثى العديدة متراكمة أمامى.

ولابد للبحث العلمى المضنى مـــن ثمـرة يجنيـــها الباحث، وهذه الثمرة هى أن تُنشـــر بحوثـــه فـــى إحـدى المجلات العلمية، ولا بد لذلك من أن تكتب هذه البحوث قبـل أن تنشر، ولابد لكتابتها من وقت متوفر وجهد كبير وتركيز عميق..

وعلى ذلك فقد أصبحت هناك مواجهة لابد منها بين خيارين، بين متعة الثقافة والإعلام والتسلية التى يمنحها لى التليفزيون – وبين تحصيل ثمار جهدى المضنـــى – وهـــو

مالن يكون ممكنا إلا اذا توفر لى الوقت والهدوء اللازمين للتركيز فى تسجيل أعمالى ·

ولعل هذا الصراع لايزال قائما حتى فى وقتنا الحاضر، بل إن حدته قد زادت فى حياة كل منا على مر الأيام ·· فالتليفزيون اليوم رهيب فى أسلحته التى لا تقاوم وبألوانه وبرامجه المذاعة أو المسجلة عن طريق جهاز الفيديو · وأنا مازلت أمارس هذا الصراع من وقت لآخر، عندما يكون هناك ما يستحق المشاهدة فيه ويكون على فى الوقت نفسه أن أنجز عملا هاما ودقيقا يحسن إنجازه فى هدوء الليل – والحق أقول أن هذا الصراع ينتهى فى أغلب الأحيان لصالح العمل، ولكن ليس فى كل الأحيان···

وقد تكون أجهزة الفيديو قد حلت الآن هذه المشكلة، فالبرامج الجيدة يمكنك أن تسجلها وقت إذاعتها كى تشاهدها فيما بعد أى فى الوقت المناسب لك والذى لايتعارض مع عملك، والصعوبة الوحيدة أمام هذا الحل السعيد، هو كيفية توفير ذلك الوقت الخالى أيضا لمن يتحمل

مسئوليات الجامعة والعلاج والبحث العلمى وعشرات الأنشطة العلمية والثقافية والاجتماعية فضلا عن تدبير أمور الحياة اليومية..

معادلة صعبة... ولكنها ليست بلا حل، فالحل بسيط – ودائما خير الأمور الوسط، وتنظيم الوقت، والحسم فى إتخاذ القرار المناسب فى الوقت المناسب، فهناك وقت مناسب دائما كى تقوم إلى هذا الجهاز الرهيب وتسكته... ثم تبدأ أعمالك بهدوء ...!

ولقد كان علىّ فى أواخر أيام إقامتى فى لندن عام ١٩٦٢ أن أتخذ مثل هذا القرار، وأن أسكت هذا الجهاز إسكاتا تاما خلال الشهر الأخير من إقامتى .... وقد تم ذلك بكل هدوء.. فقد حملت الجهاز وأعدته لصاحبه ...

الحقيقة أن هذه الخواطر ليست هى القصة التى تربطنى بالتليفزيون رباطا مباشرا، والقصة الحقيقية هى أننى فوجئت فى بريدى فى أواخر مارس ١٩٦٢ بخطاب من مكتب الاستعلامات المركزى الذى

كـان يقـع فـى وستمنسـتر بلنـدن بتوقيـع المسـئول الصحفى أو الإعلامى يخطرنى فيـه بأنـهم قـد حصلـوا على معلومات عنـى مـن المجلس البريطـانى، وأنـهم يودون التعـرف علـى أوجـه النشـاط التـى أمارسـها بالجامعة بالتفصيل لينشروا عنـها شـيئا فـى الصحافـة التى تصل إلى الـدول الناميـة، عمـا توفـره بريطانيـا لزوارهـا مـن إمكانيـات الدراسـة والبحـث العلمـى والنشاط الثقافى وقد اقترحوا موعد اللقـاء فـى مكتبـى بمستشفى جـايز ...

بالطبع سررت من هذا الخطاب، فأنا لـم يكـن قـد نشرلى أوعنى كلمة واحدة فى صحيفة ما فى أى مكان حتى ذلك الحين، وسررت أيضا بأن أجد من يتتبعـون أخبـارى ونشاطى .. شىء طبيعى جدا لشاب فى الثلاثين أن يسـعد بهذا الموقف..

وتم اللقاء بالفعل فى شهر إبريل مع رجـل اسـمه أندرو ولسون، ويبدو أن مستر ويلسون بعد هذا اللقاء وجد

شيئا يستحق اهتماما أكثر من جانب مكتب الاستعلامات فقد تحولت الفكرة من نشر فى الصحافة إلى طلب أن يقوم هذا المكتب بتسجيل برنامج ليذاع فى التليفزيون تحت اسم " يوم فى حياة طبيب مصرى فى لندن " .

كانت فكرة جميلة وبراقة، وأكثر من ذلك أنها ترضى المشاعر الطبيعية فى نفس أغلب الناس ... فهكذا بكل بساطة سوف يتغير مكانى من الجلوس فى مقعد المشاهد أمام التليفزيون، إلى داخل هذا الجهاز نفسه كبطل لبرنامج يذاع فى أماكن عديدة فى العالم – وتعبير بطل هنا ليس من قبيل المبالغة، فالبرنامج كما رسم السيناريو له يضع هذا الطبيب – الذى هو أنا – فعلا وبالضرورة موضع البطل، ويصبح كل ما يتعلق بعملى ومن يتصلون به بما فيهم حتى الأستاذ بترفيلد نفسه الذى أعمل تحت إشرافه مشاركين بصورة أقل فى إنجاز الفيلم ...





مع الاستاذ بترفيلد رئيس القسم (لورد بترفيلد فيما بعد)

... وسرعان ماتمت ترتيبات ذلك، واتفقنا بعد إخطار إدارة مستشفى جايز، وبموافقة الأستاذ بترفيلد نفسه، الذى أسعده جدا أن يشارك بالظهور فى الفيلم كذلك كل أعضاء القسم الذى أعمل به بما فيهم المساعدين الفنيين فى المعمل وحتى عاملة القهوة بالقسم.

وتم تصوير الفيلم، واستغرق ذلك يوما كاملا ...

ولم أكن أتخيل أن كل هذا الوقت والجهد يبذلان فى سبيل إتقان عمل سوف يستغرق عرضه على الشاشة فى النهاية وقتا لايزيد عن ثمانى دقائق، فقد استمر ترتيب تصوير هذه الدقائق الثمانية سبعة ساعات بالتمام، بدأت من صباح أحد أيام إبريل بتصوير لقطة تمثل دخولى اليومى عبر بوابة مستشفى جايز الشهير فى لندن بريدج ولقاء مع الأستاذ بترفيلد فى حديقة المستشفى حيث نتبادل التحية، ثم لقطات داخلية تمثل العمل فى المعامل وداخل عنابر المرضى وحضور المناقشات العلمية مع الزملاء والأساتذة..

وتم كل شىء على ما يرام ... ثم انقطعت أخبار مكتب الاستعلامات بعد ذلك . وعلمت بعدها أن الفيلم أذيع بالفعل، ولم أتمكن من مشاهدته .. ولم يسعدنى ذلك تماما ... فقد كنت تواقا لأن أرى على الأقل الصورة النهائية لهذا الجهد الذى بذل ...

صحيح أننى قد استفدت أدبيا من ظهورى فى الفيلم ... وصحيح أن الفيلم دعاية طيبة لبلادى عن نشاط ناجح لطبيب مصرى فى لندن ؛ ولكن يبقى بعد ذلك كله أنه كان يسعدنى أن أشاهد الفيلم ولو مرة واحدة على الأقل ...

وقررت أن أحتج على ذلك، فقد استخذمونى كأداة لتحقيق غرضهم، ولا غبار عليهم فى ذلك، فهذا واجبهم، ولكن على الأقل كان من الواجب أن يطلعونى على الفيلم قبل إذاعته، فقد يكون لى فيه رأى يستحق الاهتمام ؛ بل وأننى تصورت أنه كان يجب أن أستاذن قبل اذاعته ...

ولقد كان لى فى واقع الأمر هدف أعمق مـــن وراء الاحتجاج على تصرف كان ينقصه الذوق معى، فقد صممت على الحصول على نسخة لنفسى من الفيلم ذاته٠٠٠ وقـــد قدرت أن هذا يحقق غايتين معا٠٠ الأولى أن يلقن هـــؤلاء المسئولين درسا فى احترام وجهة نظر الآخرين والثانيـــة أن أحصل لنفسى على تذكار لايقدر بمال عن هذه الفترة من حياتى فى لندن ،وعلى ذلك بدأت حملـــة منظمـــة، فكتبت وتحادثت وجادلت مع المسئولين فى مكتب الاســـتعلامات- ولم أعدم فى كل ذلك من الوسائل ما أقنع به هؤلاء النـــاس أخيرا بأننى على حق، وأنهم قد أخطأوا ٠٠٠ حتى بعـــد أن أفهمونى أننى لم أكن أول أو آخر من يشارك فى هذا النـــوع من النشاط٠٠٠، فقد كنت بالطبع أعلم ذلـــك وأقـــدره٠٠٠ ولكن لم يكن يعنينى موقف غيرى من الناس٠٠٠

وعندما يعرف الانجليز أنك على حق، وأنك مصمـــم على استرداد هذا الحق، وأنك تناقشهم بأســـلوب منطقـــى

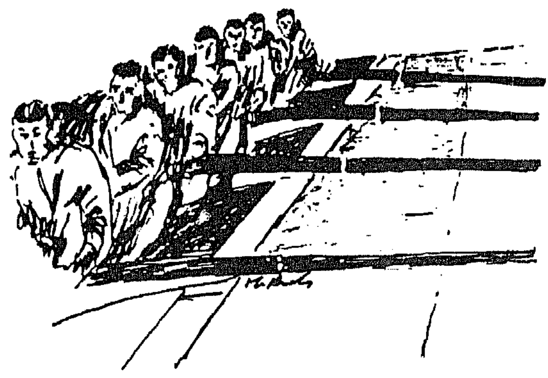
ومهذب ومتحضر ؛ فأنت تحصل دائما وبلا أدنى شك علـــى حقك . . .

وهكذا كان . . فقد اعتـــذروا أولا، مـــع التســـليم بوجهة نظرى فى أنه كان من الواجب إطلاعى على الفيلـــم قبل نشره، غير أنهم ادعوا أنه لن يكون من الســـهل فنيـــا إعادة طبع نسخة منه . .

وأمام إصرارى العنيد لم يكن هناك أمامهم بد من أن يجدوا الوسيلة الفنية لإعادة طبع نسخة كاملة مـــن الفيلـــم على شريط ١٦ ملليمترا وإهدائها لى . . و قد عدت بـــهذا الفيلم وعرضته على زملائى وأصدقائى فى الجامعة، ومـــا زلت احتفظ به واعتز به غاية الاعتزاز .

الفصل السابع

روح الفريق



روح الفريق

العمل الجماعى يحتاج لما نسميه روح الفريق .

وهو مايتحدثون عنه بالانجليزية فيقولون Team Work

ولقد رأيت الانجليز يطبقونه على أكمل وجه ...

وليس الانجليز هم الذين يفعلون ذلك وحدهم، بل تشاركهم فى هذا كل الشعوب المتقدمة فى الدنيا، وهؤلاء جميعا يمارسون العمل الجماعى بروح الفريق فى مختلف شئون حياتهم بكل جدية، لافرق فى ذلك بين عمل فريق يلعب كرة القدم فى الملاعب وبين فريق من العلماء الباحثين فى شأن من الشئون العلمية البالغة التعقيد فى أحد المعامل .

ولقد تابعت خلال مشاهدات استمرت لعشرات السنين، عملنا نحن المصريين داخل بلادنا كأفراد وجماعات، وعمل أبناء تلك الشعوب فى بلادهم كأفراد

وجماعات أيضا، ثم عملنا نحن المصريين عندما ينضم الواحد منا إلى جماعة تعمل فى تلك الدول الناهضة ... فرأيت من كل ذلك عجبا، وآمنت بعقيدة راسخة، وهى أن أحد أسرار تفوق تلك الشعوب علينا هو إيمانهم بروح الفريق فى عمل الجماعة، بينما تسيطر علينا فى أغلب الأحوال روح الفردية .

وأنهم يطبقون قواعد مرسومة لعمل الفريق دائما، تحقق لهذا الفريق أو ذاك الوصول إلى أهدافه المرسومة، بينما تفشل الشعوب المتخلفة فى تحقيق أهدافها لقصور فى تطبيق العمل بروح الفريق ..

والغريب فى الأمر أنه فى أغلب الأحوال، عندما يخرج المصرى منا، ليعمل فى مجال البحث العلمى أو فى غيره من المجالات فى إحدى الدول، فسرعان ما يتبدل الحال غير الحال، فيصبح الفرد المصرى شعلة من النشاط،وينقلب المصرى الذى كان خاملا فردى النزعة داخل وطنه ليصبح جادا مثابرا مجتهدا منتجا، بل فرعونا

صغيرا يتفوق على أقرانه الوافدين من مختلف الدول الأخرى، وعلى أبناء البلد المضيف فى أحيان كثيرة..

و قد يقال أن السبب فى ذلك هو توفر الإمكانيات المتاحة لتفجير طاقات العمل والإنتاج، فالأمور هناك كلها ميسرة.. وقد يكون ذلك صحيحا إلى حد كبير، إلا أن جزءا ضخما من هذا التغيير الخطير فى سلوك المصرى الذى أصبح فرعونا، ليس فقط لأنه توفرت له المعامل الفخمة والأجهزة المتقدمة وإنما هو نتيجة لتوفر المناخ المناسب..

وعنصر أساسى فى مانسميه بالمناخ المناسب هو سيطرة نظام دقيق للعمل الجماعى لايسمح للفرد المتخلف أو المتهاون فى عمله - أو الذى لا يؤدى دوره فى الفريق بمنتهى الالتزام والدقة، بالاستمرارفى هذا الموقف، ولو حدث ذلك فان المجتمع الجاد الدقيق الذى يحيط به سرعان ما يلفظه- وقد يصل التزام هذا المجتمع الجاد إلى درجة

من الصرامة الشديدة تتمثل فى شـــعار "أعمـــل أو مـــت " "Do or die" ! ٠

فإذا اجتمعت مجموعة أفراد من الانجليز أو الألمان أو الأمريكيين أو خليط من كل هؤلاء فإنهم يعملون بـــروح الفريق المتكامل، ليؤدوا معا عملا محـــددا، ولنفـــترض أن عددهم كان خمسة أفراد، فإن حصيلة إنتاجهم لن تكون أبـدا مساوية لمجموع الناتج الحسابى البسيط لأعمالهم كـــأفراد، فإذا كان كل فرد منهم ينتج وحدة إنتاج واحدة مثلا فلا بـــد أن تكون المحصلة النهائية لإنتاج الفريق المتكامل تزيد عن خمس وحدات فهى هى ثمانية وحدات مثلا، أو قل عشرة أو عشرين وحدة ٠٠

ومع أننا نحن الذين نملك بفضـــل تراثنـــا وقيمنـــا الدينية العظيمة التى تؤكد لنا أن "يد الله مع الجماعـــة" ٠٠٠ وأن ذلك يعنى بمنتهى الوضوح أن جماعة مؤمنة بعملـــها، جادة فى أداء هذا العمل متعاونة فى تحقيق الهدف ســتعطى

ثمرة إنتاج توازى بالفعل عمل أضعاف عـــدد أفــراد تلــك الجماعة ... لأن يد الله تكون حينئذ فوق أيديهم..

فهل هذا ما يحدث فى مجتمعاتنا حقا ؟ من المؤلـــم أن القيم السامية والخلاقة التى زُرعت فى أرضنـــا يطبقـــها غيرنا بنجاح، ولا نحفل نحن فى كثير مـــن الأحيـــان- ولا أقول بالطبع فى كل الأحيان- بتطبيقها .

فالواحد من أفرادنا عندما يجتمع مع واحد آخر زائد واحد ثالث، قد لا تكون محصلة إنتاج الجميـــع خمســـة أو عشرة كما يجب أن يكون ؛ بل قد تكـــون المحصلـــة كلـــها واحدا فقط، بل قد تكون صفرا عند حساب ثمرة الإنتاج..!

والسبب؟ إنعدام روح الفريق ... فاذا كان كل فـــرد من الأفراد هو طاقة فى حد ذاته، وإذا لم تكن هذه الطاقـــات جميعا موجهة فى اتجاهها الصحيح بتوافق دقيق فإن كـــلا منها على حدة يشد فى الاتجاه الخاطىء- كل حسب هـــواه ونظرته الفردية للأمور ؛ ومصالحه الذاتية، فتضيع الجـــهود كلها أشتاتا ... وتصبح المحصلة صفرا كبيرا..!

ولقد عشت تجربة العمل الجماعى بأروع ما تكون في مجال البحث العلمى - ضمن عملى بقسم الطب التجريبى بمستشفى جايز بلندن. والبحث العلمى فى هذا القسم - مثله مثل كافة مراكز البحوث الجادة فى انجلترا أو غيرها من بلاد العالم المتقدم- يقوم على أسس دقيقة، من أهم مقوماتها- وبخاصة فى العصر الحديث - العمل بروح الفريق. إذ أن البحوث الفردية، مثلما كان يقوم به الرواد الأولون من علماء الطبيعة والكيمياء والطب وغيرها، قد أصبح من الصعب جدا أن تنتج اليوم شيئا ذا بال، حيث تضخمت فى هذا العصر دائرة المعارف واتسع نطاق العلم، وتشابكت دروبه.

فالوصول بصاروخ إلى القمر مثلا لم يتحقق إلا كنتاج لجهود آلاف من البشر، تعاونوا فى جماعات صغيرة أو كبيرة لإنتاج كل قطعة وكل جهاز من أجهزة الصاروخ.

والبحث فى أى مجال طبى متقدم اليــوم بواســطة فريق من الباحثين لابد له أن يسلك نفس السبيل إذا أريد له أن ينتج تقدما ذا قيمة فى هذا المجال ٠

وعندما كنت هناك قرّرت قيادة البحث العلمــى فــى بريطانيا أن هناك حاجة لإجراء مسح طبى شــامل لقيــاس مدى انتشار مرض السكر بين أفــراد المجتمــع،ودراســة متكاملة للمعدلات الطبيعية لمستوى السكر فى الدم وغــير ذلك مما يتصل بمرض السكر، بين دراسات لايستلزم الأمــر الدخول فى تفصيلاتها ولكنها كلها كانت تكوّن دراسة عميقة عن مرض السكر ٠و عندما تقرر ذلــك اختــيرت مدينــة بيدفورد Bedford فى شمال لندن وهى بلدة صغــيرة جميلــة تقع على نهر الأوز Ouse، وكان يســكنها عندئــذ حوالــى خمسون ألف من السكان، وهى مركز لبعــض الصناعــات الزراعية وصناعة الآلات والسيارات ومواد البناء، ويعيــش فيها عمال هذه الصناعات ٠واختير للقيام بتجربة المســح الطبى الشامل مجموعة فريق من الباحثين لتتولــى جمــع

وفحص عينات من البول من جميع سكان المدينة فى يـــوم واحد محدد، ثم تقوم بعد ذلك بفحص الدم للحالات الإيجابية، ثم فحص عدد ضخم من الأفراد فحصا طبيا شـــاملا، خــلال بضعة أسابيع تالية .

وكانت المجموعة التى وقع عليـــها الاختيارلإتمـــام هذه المهمة هى أفراد قسم الطــب التجريبـــى بكليـــة طـــب مستشفى جايز بجامعة لندن - الذى كنت عندئذ أحد أفــراده .

وقد قام هذا الفريق بتلك الدراسة الشهيرة المعروفة فـــى تاريخ المسح الطبى الشامل لمرضى السكر والتى تمت خلال عامى ١٩٦١-١٩٦٢، واستمرت متابعـــة نتائجـــها وقتـــا طويلا بعد ذلك .

ولا أعرف ما يقوله على وجه التحديـــــد- علمـــاء النفس وخبراء علوم الاجتماع عن قواعد العمل الجمـــاعى، ولكننى أستطيع أن أستنتج من واقع تجربتـــــى الشـــخصية قواعد أثق تمام الثقة أنها تكوّن مفتـــاح النجـــاح لتحقيـــق

أهداف العمل الجماعى، ولعلنى أستطيع استخلاصها من تجربتى فى بدفورد ٠٠٠

١) فلا بد أن تكون هناك فكرة محددة وراء العمل المطلوب، وهذه الفكرة هى التى تحدد الغرض من إجراء دراسة ما لتحقيق "هدف محدد" ٠ ولابد من أن يكون لتحقيق هذا الهدف فائدة أو "جدوى" تتحقق عند انتهاء مراحل العمل وقطف ثماره ٠

ولقد كانت الفكرة واضحة أمامنا ؛ إن نسبة انتشار مرض السكر فى ذلك الوقت كانت قد أصبحت غير مؤكدة – وحتى المعدلات الطبيعية المتعارف عليها فى مستوى سكر الدم بين الناس الأصحاء لم تعد موضع ثقة، بسبب قصور الوسائل القديمة التى تحددت على أساسها هذه المعدلات، ولذلك فالهدف كان إجراء مسح إحصائى شامل، على أسس علمية دقيقة لم تكن متوفرة من قبل ؛ وذلك كله يحقق فائدة مؤكدة وهى معرفة الأسس الطبيعية التى يمكن الاستناد اليها كمرجع لتحديد الظواهر المرضية ٠

٢) ولابد للعمل الجماعى من قيادة، فلا يوجد "فريــــق بدون" قائد"! والقائد قد يكون ظاهرا للعيان مثلما يظـــهر لنا المايسترو الذى يقف أمام فريـــق الموســـيقين فـــى الأوركسترا عند عزف سيمفونية جميلة، وقـــــد يكـــون القائد غير ظاهر للمشاهدين ظهورا مباشرا فـــى أثنـــاء الأداء ؛ مثل كابتن فريق كرة القدم الـــذى نـــراه علـــى أرض الملعب يؤدى دورا مثله مثـــل بـــاقى اللاعبيـــن، ويرتدى مثل أرديتهم ولكنه فى الوقت ذاتـــــه يوجهـــهم وهو بينهم دون أن يشعر بـــه جمـــهور المتفرجيـــن • وكان فريق الباحثين فى بيد فورد بقيادة الأستاذ بترفيلد رئيس القسم نفسه• • •

ومثل أى قيادة سليمة، كان لابد أن يكون هنـــاك قائد ثان • • احتياطا للظروف،يأخذ مكـــان القـــائد عنـــد غيابه، أو يترك له القائد تنفيذ بعض التفصيلات الجزئيـــة أثناء الأداء، لكنه يكون دائما جاهزا لتولـــى المســـئولية

بأكملها إذا غاب القائد الأصلى، وهو لذلك فــاهم دائمــا لأبعاد المهمة كلها مدرب عليها .

وكان القائد الثانى فى فريقنا آنذاك هـو الدكتـور/ هارى كين، وهو رجل حلو المعشر ربطتنـى بـه علاقـة صداقة قوية وجلسات حوار ممتعة بعد أن تبين لنا أننا كنـا فى وقت واحد سابق عدوين متحاربين فـى منطقـة قنـاة السويس فى مصر، حيث كان هو يعمل طبيبا فـى جيـش الاحتلال البريطانى عام١٩٥٢ بينما كنت آنذاك متطوعا مـع جماعة الفدائيين المصريين الذين يحاربون قوات الاحتـلال فى ذلك الوقت . أما الآن فهو أحد أشهر علمـاء مـرض السكر فى بريطانيا وفى العالم .

٣) وأفراد الفريق لا بد أن تجمعهم صفات سلوكية تؤهلـهم للانتماء إلى فريق متكامل، فليست كل خبرة فردية مهما علا شأنها بقادرة بالضرورة على ممارسة العمل ضمن الفريـق، وتحت القيادة المقررة، إلا إذا توفرت لدى الأفـراد شـروط "الإلتزام" بتحقيق الفكرة وإنجـاز الـهدف المحـدد للعمـل

الجماعى، وهو ما يستلزم قدرا من الطاعة لتوجيهات القيادة عند التطبيق، وليس معنى ذلك بالضرورة أن تكون تلك الطاعة عمياء، أو صورة طبق الأصل للطاعة العسكرية التى لاتناقش الأوامر الصادرة بل تنفذها فقط ؛ بل إن القيادة السليمة عندما تمارس مسئوليتها القيادية قد تحرص على أن يكون أفراد الفريق جميعا على وعى كاف بمدلولات الأوامر والتعليمات ومشاركين إن أمكن فى مرحلة التخطيط وإصدار القرار ٠

ومما يحقق نجاح الفريق فى مهمته أن تشيع روح الصداقة والمحبة بين أفراد الفريق، وأن تنعدم الأنانية والفردية فيما بينهم ٠

ولا يكفى توفر تلك الصفات السلوكية وحدها بالطبع لتكوين فريق ناجح، بل ذلك هو الاطار الذى يضم خبرات محددة تتوفر لكل فرد على حدة، فليس كل فريق من الأصدقاء الحميمين مثلا بقادر على عزف مقطوعة موسيقية بصورة سليمة إن لم يكن كل فرد منهم فى

الأساس خبيرا فى العزف على الآلة التى يمارس العزف عليها .

وهكذا بدأنا بالفعل مهمتنا العلمية فى بدفورد- فقد كان فريقنا متكاملا ، مكونا من أفراد يعرفون بعضهم البعض معرفة دقيقة، كان يساعد عليها أن تقليدا جميلا حرص عليه رئيس القسم، وهو أن يجتمع معنا مرة كل أسبوع بعد الظهر على فنجان شاى فى اجتماع يحضره كل أفراد القسم ابتداء من رئيس القسم وانتهاء إلى عاملة القهوة مسز كلينكر لنتشاور فى أمور القسم ويحدثنا الرئيس ونحدثه،ونعلم ماجرى وما سوف يجرى بالقسم....

وعندما وصل إلينا تكليفنا بمهمة القيام بالمسح الطبى فى بدفورد كانت هذه الاجتماعات الأسبوعية وسيلة فعالة لشرح المهمة بالتفصيل لنا، وتكوين الاستعداد السلوكى فى نفس الأفراد لقبول التحدى، والحرص على إحراز النجاح والالتزام بتوجيهات القيادة والتعاون فيما بيننا لتحقيق كل ذلك .

وبالطبع كانت لكل واحد منا خبراتة الخاصة التـــى يتقنها والتى كان عليه أن يساهم بها فى العمل الجمـــاعى، فهذا طبيب، وذلك مساعد فنى والثالث كيميائى، وهكذا كـــل واحد له تخصصه المحدد ٠

٤) ولابد للعمل الجماعى الكبـــير مــن "خطـــة تنفيذيـــة " ذات مراحل متعددة ٠ وليس بـــالضرورة أن تكــون هـــذه الخطة معروفة بكافة جزئياتها الدقيقـــة وتفصيلاتـــها لكــل فرد على حدة؛ ولكن على كـــل فـــردأن يعـــرف أدق هـــذه التفصيلات فيما يتعلق بمهمتـــه، ثـــم أن يســـتوعب بقـــدر طاقته ما يســـتطيع اســـتيعابه مـــن مجمـــل الخطـــة ودور الأفراد الآخرين، وخاصة هؤلاء الذيـــن قـــد يتعيـــن عليـــه أن يحل محلهم عند اللــــزوم ٠٠٠

وفـــى مـــهمتنا كـــانت هنـــاك مراحـــل متعـــددة،و بعضها كان سابقا بوقـــت طويـــل لليـــوم المحـــدد لتنفيـــذ الفحـــص الشـــامل نفســـه، وهـــو مايســـمى بمرحلـــــة "الإعـــداد" ٠

وقد احتاج الإعداد مثلا فى هذا العمل إلى تهيئة الرأى العام – الذى شمل كل سكان المدينة– للفكرة، للحصول على أقصى درجة من تعاونهم معنا لإنجاح الفحص الشامل، واستدعى ذلك تجنيد كل وسائل الإعلام من إذاعة وصحافة ونشرات، واجتماعات مع القيادات الشعبية المحلية... وتم كل ذلك بمنتهى الدقة قبل البدء فى اليوم المحدد .واحتاج العمل أيضا لحشدالأجهزة والمواد الكيميائية اللازمة للفحوص، ووسائل النقل ومختلف المستلزمات ابتداء من ورق الكتابة والأقلام إلى أدق الأجهزة اللازمة لفحص آلاف العينات فى أقصر وقت ممكن .أما التنفيذ فقد تم بطريقة غاية فى الدقة والتعاون الهارمونى بين جماعات مختلفة .

ففريقنا القادم من لندن إلى بدفورد تم تقسيمه إلى نصفين متساويين ؛ فريق الأداء يذهب إلى بدفورد للبقاء أسبوعا، فيقيم أفراده فى أحد الفنادق وينتقلون فى كل صباح بصورة منظمة إلى مواقع العمل ويعودون فى

المساء، ويستمر الحال لمدة أسبوع، لتأتى مجموعة الفريق الاخر فتحل محل الفريق الأول الذى يعود إلى لنـــدن لمـــدة أسبوع، ويستمر هذا التناوب إلى أن تنتهى المهمة .

وكانت هناك بالطبع عشرات الفرق الأخـــرى التـــى تعاونت معنا فى إنجاز المهمة الكبيرة، وعلى سبيل المثـــال فإن فريقا ضخما من صبية المدارس وأفراد الكشافة كـــان عليهم أن يذهبوا إلى جميع بيـــوت المدينـــة فـــى المســـاء ليوزعوا على السكان علبا صغيرة من البلاستيك بقدر عدد أفراد كل منزل، ثم يعودون فى الصباح التالى، أى صبـــاح اليوم المحدد للفحص الشامل لجمع هذه العلب التى تحتـــوى على عينات بول الآف السكان، لتســـليمها إلـــى جماعـــات التحليل، وتقوم جماعات ثالثة ورابعة بالشـــئون الاداريـــة والتنظيمية وهكذا . . .

و قد كان علىّ إلى جانب بعض الأعمـــال الاداريـــة البسيطة أن أقوم بالكشف الطبى – ضمن فريق الأطبـــاء – على الحالات الايجابية .

٥) والخطة السليمة لاتصطدم بالتطبيق الســليم إذا كـانت خطة واقعية، أما إذا كانت خطة خيالية وغير عملية، كــأن تستهدف الحصول على نتائج لامعقولـــة ؛ أو أن لاتحســب حسابا للمتغيرات والظروف، أو لاتحشد من قبـــل أن تبـدأ معركة التطبيق كــل الإمكانيــات البشــرية والمســتلزمات الضرورية- كما يحشد القــائد المــاهر إمكانيــات النصــر للمعركة الحربية- فإن مصير هذه الخطـــة يكــون الفشــل المؤكد . غير أن ذلك كله لابد أن يتــم فــى إطــار مـــن " المرونة"، وتوفر الخطط البديلة إذا جد عند التطبيــق مــا يستوجب ذلك .

ومع أنه فى تجربة بدفورد لم أجد أن ســيارة قـد تعطلت أو أن جهازا قد فسد، أو مادة مـــن الموادالـلازمـة للتحاليل قد نفذت،أو أن فردا من الأفراد قد تعمــد الــهروب من مسئولياته- إلا أن توفر المرونة فى الخطة كان دائمــا كفيلا بالتغلب على ماطرأ من مشاكل أخرى لم يكن هناك بـد من حدوثها، فالقيادة السليمة كانت قادرة باستمرار علـــى

سلوك دروب جانبية للتغلب على المشكلات الطارئة والسير بالخطة مرة أخرى فى مسارها السليم .

وقد تم ذلك بصورة رائعة أيضا على مستوى الأفراد أنفسهم، فالفريق الناجح يتوفر فى أفراده استعداد كل منهم "للتغطية"، مثلما يحدث فى فريق يلعب كرة القدم بكفاءة، فلو أن حارس المرمى فى فريق الكرة مثلا اضطرته الظروف أو أخطا فترك مرماه بعض الوقت بلا حراسة فسرعان ما يندفع أفراد آخرون غير حارس المرمى نفسه لتغطية هذه المهمة مؤقتا، وقد يفعل ذلك ظهير أو مهاجم دون أن يفكر لحظة واحدة فى أن أسباب الخطأ أو القصور ليست من شأنه، بل إنه يحصر فكره وجهده فى تلك اللحظة أن تكون المهمة الأولى أمامه هى تغطية ذلك القصور أو الفراغ أولا . . .

* * *

واليوم كلما عادت بى الذاكرة إلى تلك الأيام التى عشت فيها ملحمة العمل الجماعى ضمن فريق بدفورد،

أتأمل قدرتى وقدرة زملائى ؛ وكثير من القيادات المسئولة عن الأعمال التنفيذية فى مختلف مجالات العمل فى بلادنا؛ سواء كان ذلك بحثا علميا كبيرا، أو عملا إنشائيا ضخما، أو تنظيما لخدمات عامة على مستوى شامل، أو أى عمل يحتاج لجماعة من الناس يعملون وفق نظام وتخطيط، وكلما فكرت فى كل ذلك تنتابنى مشاعر الرضا تارة والسخط تارة أخرى ....

ففى بعض الأحيان تتجلى فى أعمالنا روعة الأداء، وذلك عندما نستفيد نحن المصريون من روح أجدادنا الفراعنة، الذين بنوا أهرامات مصر باسلوب المصريين الذى ما من شك فى أنه كان يطبق قواعد العمل الجماعى بكل أبعادها، وإلا لما كان من الممكن أبدا أن تقام هذه الصروح الشامخة لتبقى بعد ذلك آلاف السنين تتحدى الزمن والفناء على ذلك النحو الرائع.

ولكن ما يؤلم النفس أيضا أننا نشهد من وقت لآخر جماعة أخرى من أبناء وأحفاد فراعنة مصر، كل

منهم قد أثبت مقدرته الفذة كفرد منتج خلاق مجتهد فى أحد مجالات تخصصه، إلا أن الجماعة منهم عندما تلتقى فى عمل مشترك فسرعان ما يبدأ التصارع على السلطة فتضعف القيادة، ويتجلى الانفراد بالرأى، فيتلاشى التكامل والهارمونى بين أفراد الجماعة، ويسيطر ضيق الأفق وانعدام الخيال الذى كان يمكن أن يسمح بمرونة التطبيق فتنهار الخطة أمام أول صعوبة يقابلها التطبيق، ثم ينتهى الأمر بمحاولة كل فرد فى أن يلقى بمسئولية الفشل على فرد آخر من أفراد الجماعة، أوأن تتفق الجماعة أخيرا على التخلص من تبعة الفشل بالتعلق بأسباب أخرى فتتهم الظروف، أوالمسئولين، أو الحكومة، أو غير هذا وذاك من اللامحسوسات التى كثيرا ما نلقى على عاتقها بمشا كلنا ثم نعود فنستأنف التباكى على العمل الذى لم يحقق النجاح...!

ولِم كل هذا ؟ لأننا لم ننتبه بعد إلى ضرورة أن نزرع روح العمل الجماعى فى كيان أبنائنا فى المدارس

والجامعات، بل أقول فى تكوين أطفالنا فــى البيــوت منــذ نعومة أظفارهم، فالطفل أو الصبى الصغير فى منزل الأسرة لو أنه تعلم منذ البداية أنه فرد مهم فى جماعة صغيرة هــى أسرته، وأن كل فرد فى هذه الأسرة عليــه واجــب مكمــل لواجبات الأفراد الآخرين فى هذه الأسرة، وأن عليــه هــو الصغير أيضا مسئولية ما تحتاج منه لبعض البذل والعطــاء، لإقامة كيان تلك الأسرة- لو أن هذا الاسلوب التربوى قــد تحقق مثلا عن طريق تكليف هذا الصغير ببعــض الأعمــال البسيطة التى تناسب سنه، ثم إشعاره بأهميتها فى تحقيــق التكافل فى بناء كيان المنزل – لو أن كل ذلك حــدث لنشــأ الصغير، ثم شب بعد ذلك وروح العمل الجماعى وقواعــده وآدابه قد أصبحت جزءا من أخلاقياته وســلوكه، فيصــير مواطنا صالحا وعضوا بناءا فى مختلف جماعات العمــل، سواء كان هو فى موقع القيادة أو فى أى موقع آخر...

وعندما أشاهد اليوم ذلك الحماس المجنــون الــذى يبديه شبابنا لمتابعة مباريات كرة القــدم، علــى شاشــات

التليفزيون أو فى الملاعب، ومناقشاتهم المحمومة بعد تلك المباريات، واهتمامهم الفائق بأخبارها فى قراءاتهم للصحف، ومواكبهم فى الطرق عقب فوز ذلك الفريق أو سواه، فإننى أتالم غاية الألم، ليس لأننى أكره كرة القدم، وليس لأننى لا أحب أن يعشق شبابنا الرياضية، بل إن العكس هو الصحيح تماما، لأن الرياضة أخلاق سامية، وهى أخلاق قبل أن تكون عضلات، وكرة القدم بالذات هى اللعبة التى تتمثل فيها روح العمل الجماعى بأروع مظاهرها ...

ومع ذلك فاننى أنادى بملىء فمى : "فلتسقط كرة القدم من حياتنا إن لم يتحقق منها هدفها التربوى، وإذا لم يكن من ثمارها إلا ذلك الهوس الكروى البغيض".

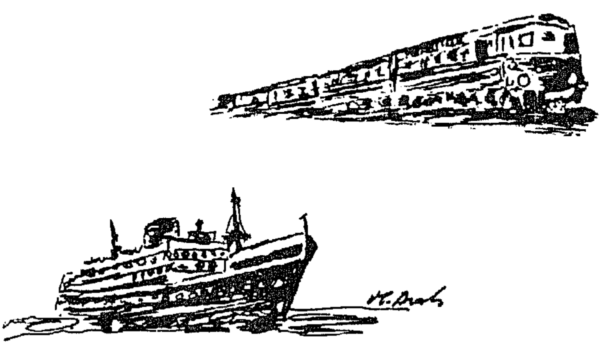
فالهدف من تشجيع انتشار الاهتمام بكرة القدم والرياضة بوجه عام- فى نظرى يجب أن يكون أولا هو تربية الشباب على "التفكير" بروح الفريق " والعمل" بروح الجماعة "والسلوك" به أيضا، أما أن يمارس شبابنا ذلك الاهتمام الزائد بمتابعة مباريات كرة القدم ثم عندما تنفض

تلك المباريات ينطلقون فـــى أداء شـئون حياتـــهم بذلـــك الأسلوب الفردى، وتلك اللامبالاة التى يتقلص فيها الـــتزام الفرد داخل الجماعة، والتى يلقى فيها كــل إنســان عــبء واجباته على سواه بدلا من أن يتكامل مع زميله بل ويغطــى قصور هذا الزميل على الفور، أوأن تسيطرعليه تلك الـروح الهدامة التى فى كثير من الاحيان ما تدفع الفرد منهم فيعمل جهد طاقته على تقويض أعمال الأخرين بدلا من الإضافـــة اليها وتقوية دعائمها...

أما أن يحدث كل ذلك ولا يستطيع فـــرط الاهتمـــام بالرياضة وبمباريات كرة القدم أن يفعل شيئا يحقق به بنـــاء روح الفريق، فإننى أعود فأصيح بأعلى صوتى مرة أخرى : "فلتسقط كرة القدم التى لاتحقق فى حياة وطننا هدفا"!!...

الفصل الثامن

استكشاف بريطانيا



استكشاف بريطانيا

أوكسفورد ، كمبردج، ليفربول، برمنجهام، مانشستر، ادنبره – جلاسجو وغيرها كثير من مدن بريطانيا العظمى ... كانت كلها أسماء ترددت على أذنى منذ الصبا ، مرة من مدرسى الجغرافيا ، ومرة أخرى من مدرسى التاريخ ، فتلك مدينة تميزت بالصناعات البريطانية المشهورة التى ارتبط اسمها بتاريخ بلادنا طويلا ، مثل صناعة الغزل والنسيج ، فطالما استغلت بريطانيا مصر خلال عهود الاحتلال كمزرعة تمدهم بقطننا الممتاز،ثم يعودون إلى تصديره إلينا بعد ذلك مصنوعا ليستنزفوا بذلك ثرواتنا، وتلك مدينة أخرى تشتهر بتصدير الفحم أو صناعة الصلب أو ما إلى ذلك، ومدرسو التاريخ أيضا علمونا شيئا عن تاريخ ملوك انجلترا من أسرة ستيوارت وتيودوروملوك اسكتلندا ، وعصر كرومويل الحديدى وحرب التحرير فى ايرلنده الجنوبية التى استقلت أخيرا عن التاج البريطانى ....

وكنت أيضا أسمع فى مرحلة الصبا ومقتبل الشباب عن الجامعات البريطانية العريقة فى اكسفورد وكمبردج

وإدنبره ، وكانت عبارة "زميل بكلية الأطباء الملكية بلندن أوإدنبره " تتصدر ألقاب العديد من صفوة الأطباء فى مصر . وهكذا كان لأسماء المدن البريطانية رنة خاصة تنطلق من أذنى مباشرة إلى وجدانى ... كان هناك شعور طاغ يتغلغل فى نفسى يجعلنى أتمنى أن أزور هذه المدن جميعا .

وعندما اقترب خريف عام١٩٦١ كنت قد أمضيت فى لندن حوالى عام كامل ،عايشت فيه الحياة البريطانية بقدر كبير من العمق ، فقد عملت فى أحد أعرق مستشفياتها الجامعية، وزرت إلى جانب ذلك العديد من مستشفيات العاصمة، الحديث منها والتقليدى القديم فسررت يوما أو بضعة أيام بمستشفيات الهمرسميث والرويال فرى وسانت توماس وكنجز كولج ويونيفرستى كولج ... أما أوقات فراغى وإجازاتى فقد استثمرت كل ساعة منها فى معايشة المجتمع الانجليزى،فدخلت بيوت الانجليز من أهل لندن ، وناقشت أعضاء النوادى بلندن ومايحيط بها ، زرت المتاحف كلها والمسارح جميعا ،وسرت فى شوارعها وحواريها ، فعرفتها بما يفوق أضعاف ماكنت أعرفه حتى

ذلك الوقت عن القاهرة التى لم أكن قد أمضيت بها خـــلال فترات الزيارات المتقطعة إلى مايصل فى مجموعه إلى عشر الوقت الذى عشته فى لندن ...

وكان الفضل فى تلك الإحاطة الدقيقة بكل شـــىء ، وفى سهولة ويســـر،يرجع إلى حد كبـير لتوفــر الخرائــط وكتب الإرشاد السياحى والنشرات المصــورة التى تضع كل ذلك أمامك بغير عناء ...

وهكذا كنت وقتئــذ قد تشبعت بلندن وشبعت منها ، وأصبحت فى شوق جارف للتجربة خارج لندن ، وكان مــن الضرورى لذلك أن تتحول أكسفورد وكــامبردج وإدنـــبره وكل تلك الأسماء أيضا إلى حقائق مادية أراها وألمسها ..

كنت تواقـــا للذهـــاب إلـــى هـــذه الأمـــاكن لأزور مستشفياتها وجامعاتها وأرى مبانيها الأثرية وأمشـــى فـــى طرقاتها وأتكلم مع أهلها ...

ولم يكن أمام ذلك من سبيل إلا إعداد رحلات لـــهذه المـــدن تكلفنى مالاطاقة لى به .. وكان أقصى مـــايمكـــن عملـــه وقتذاك هو تدبير بعض الرحلات القصيرة التى كـــان مـــن الممكن أن تتم خلال يوم واحد فى عطلة نهاية الأسبوع إلى

احدى المدن القريبة مثل اكسفورد أو كمبردج على أكثر تقدير ...

وفجأة جاءت الفرصة الكبيرة التى كنت أحلم بها ، وعندما حدث ذلك أمسكت بها بيدي وأسنانى كما يقولون ...

جاءت المفاجأة عندما دعانى ضابط الإتصال بالمجلس البريطانى ، ليخبرنى بما عرفه المسئولون بالمجلس من خلال تقرير وصلهم من الأستاذ بترفيلد عن النشاط المميز فى البحث العلمى الذى قمت به خلال عام متواصل من العمل الجاد بمستشفى جايز ... وقال لى ضابط الاتصال أنه لذلك يبلغنى بأنه إذا كان هناك ثمة مراكز علمية أخرى أرغب فى زيارتها بالمملكة المتحدة خارج لندن فإنهم يوافقون على ذلك وسوف يتولون تنظيم رحلتى والإنفاق عليها ....

كانت مفاجأة ضخمة بالطبع ، وكانت سعادتى بذلك غامرة ، فطلبت مهلة لبعض الوقت لأقوم بإعداد قائمة بالمراكز العلمية التى أود زيارتها لتبادل الخبرة مع من فيها .

ولم أضيع وقتا فى محاولتى للتشبث بتحقيق حلمى الكبير فى أن أرى كل مدينة بريطانية سمعت أو قرأت عنها

من قبل في دروس الجغرافيا أو التاريخ ،ووضعت أمامي خريطة للجزر البريطانية - مازلت أحتفظ بها حتى الآن- وصورت عليها رغباتي بلا حدود أو قيود: اكسفورد -كمبردج-برمنجهام - مانشستر -ليفربول - ليدز - جلاسجو-أدنبره وإحدى مدن ايرلنده الشمالية ولتكن بلفاست ...

وكانت خطتي الماكرة لتحقيق ذلك بسيطة جدا ، وهي أن أقرر أولا المدينة التي أرغب في زيارتها ، ثم أتقصى بعد ذلك عن المراكز الطبية الشهيرة التي توجد بهذه المدينة أو تلك ،وبعد ذلك أتحرى المعلومات عن شخصية ما في هذا المركز أو ذاك يكون له صلة من حيث الخبرة العلمية بالموضوعات التي تناولتها بحوثي ودراساتي في مجال مرض السكر والدورة الدموية أو الروماتزم المفصلي وهي المجالات الثلاث التي تناولها نشاطي العلمي وقتئذ ، ثم أطلب بعد ذلك زيارة هذا الأستاذ أوالباحث في مدينة معينة للحصول على خبراته ومناقشته أثناء الزيارة .....

ولم يكن أمر تنفيذ مثل هذا الخطة سهلا بالطبع ، ولكنه لم يكن أيضا مستحيلا ، فهناك دليل كنت قد عثرت عليه

بمعاونة زميل اسكتلندى كان يعمل معـــى بنفــس القســـم ، أسعده أن يمدنى أيضا بمعلوماتـــه الشـــخصية عـــن مـــدن اسكتلندا ذاتها ...

وهذا الدليل يضم أسماء العلماء المتخصصيـــن بالجامعـــات ومراكز البحث الطبى ، ومجال تخصص كل منهم والأمـــاكن التى يعملون بها مع العناوين الخاصة وملخص بسيط عـــن التاريخ العلمى لكل منهم .

بعد ذلك قمت باعداد خطتى الخبيثة بالمقلوب ،فقـــد بـــدأت برصد قائمة طويلة بأسماء علماء وأساتذة افترضت أننـــى أرغب فى مقابلتهم ، مما يستدعى بالضرورة الوصول إليهم فى أماكنهم بتلك المدن ...

ومع أن رغبتى فى لقاء هذه القائمة مـــن العلمـــاء كـــانت صادقة وحقيقية، وكانت تخدم أهدافى العلمية تمامـــا ، إلا أن رغبتى الأخرى الماكرة كانت تكمن فى مجرد الوصول إلـــى هـــؤلاء الناس ، أو على الأصح إلى الـــمدن التى يعملـــون بـــها ، وليكن بعد ذلك مـــايكون ... فـــإن تحقـــق لـــى الاستفادة العلمية المطلوبة من خبرتهم يكـــون ذلـــك شـــيئا عظيما ، وإذا لم تتحقق الثمرة العلمية بالمستوى المرغـوب

فلا بأس ، لأن رغبتى فى السياحة العلمية -إن شئت الصدق فى التعبير- تكون هى التى قد تحققت على الأقل . .

و بعد مرور مايزيد على أربعين عام من تلك الأيام ، وحضورى لمئات المؤتمرات العلمية فى مختلف دول العالم، قد تبين لى بالفعل أن السياحة والعلم متلازمان،فكل منهما يمثل جانبا من الرغبة فى المعرفة ، وأغلب الجمعيات العلمية الدولية تتفنن فى اجتذاب أعضائها لحضور المؤتمرات العلمية بعقد المؤتمرات الدولية فى أماكن متفرقة من أرجاء العالم ، وتحيط برامجها العلمية بجو سياحى ونشاط اجتماعى وحفلات واستقبالات تجعل متعة السياحة ملازمة لمتعة العلم ، أو على الأصح لتخفيف المعاناة العلمية المصاحبة لتلك المؤتمرات ، التى يحتاج حضورها إلى جهد كبير فى الاستعداد لها من جانب الباحثين ، والتركيز الذهنى لمتابعة مايقال ويعرض بها من بحوث ودراسات ....

وضعت خطتى وتوكلت على الله . . .

وتوجهت إلى شارع ديفيز لمقابلة ضابط الاتصال المستر ريد ، واستقبلنى الرجل بالترحاب المعتاد ، وتصنعت من

ناحيتى كل الجد فى إطار من البراءة وأنا أعــرض عليــه القائمة الطويلة التى تضم مايقرب من خمســـة وعشــرين شخصية علمية فى أحدعشرمدينة بريطانية مختلفة .

وما إن انتهيت من قراءة القائمة حتى فغر الرجل فاه فــى استغراب واضح وبادرنى قائلا: دكــتور"آراب" هـــل أنت جاد فى تحقيق ذلك حقا – أو بمعنى أصح هــل تــأمل بالفعل فى أن تحققه ؟

وتصنعت الدهشة قائلا : ولم لا يامســتر ريد ؟

قال : لأنه كثير ... كثير جدا ، ولايمكن أن يموّل المجلس البريطانى هذه الرحلات الطويلة العديدة فــى طــول البــلاد وعرضها ....

وفجأة وجدت أن قدرتى على المراوغة قد أصبحت صفــرا ، لقد عشت مع هؤلاء الناس مايقرب من عام كــامل ، وقــد اكتشفت خلالها أن الصدق والصراحة أجــدى على المــدى الطويل فى التعامل معهم ... على الأقل كان هذا حالـــهم فى أوائل الستينيات ...

ووجدتنى فجأة أقول " اسمع ياسيدى، الحقيقة أننى عشــت هنا فى لندن، وأحببت حياتى بها جدا ، واســتمتعت بذلــك

متعة حقيقية وقد حققت مهمتى ما أنا راض عنه تماما حتى الآن ٠٠٠ولقد طرقت كل شارع وحارة وزرت كل متحف وحديقة، وأنا الآن أرغب فى أن أعرف المزيد عن بريطانيا كلها وليس عن لندن وحدها ٠٠٠ أريد أن أرى الاسكتلنديين فى اسكتلندا وليس كزملاء لى فقط فى مستشفى جايز،وأن أرى الإيرلنديين فى أيرلندا وليس فقط بصفتهم أصحاب المسكن الذى أقطنه بلندن٠ أريد أن أرى المدن البريطانية ٠٠٠ وبصراحة يامستر ريد لقد وضعت خطتى على هذا الأساس٠٠٠٠

ثم شرحت له بكل الصدق والأمانة ماكنت قد دبرته وخططت له بالتفصيل٠٠٠٠٠

ويبدو أن جرعة الصدق ، مع حرارة الدفاع عن فكرتى كانت ملائمة تماما ، فقد تراجع المستر ريد فى مقعده ، وصمت فترة ثم نظر إلى نظرة طويلة نفذت إلى أعماقى قبل أن يقول : "اسمع ، إننى سأكون إلى جانبك ٠٠٠٠لكن اعلم أنها أول مرة أقابل فيها وافدا من الخارج يعرض فكرة جهنمية كهذه، وبهذا الأسلوب المباشر الصريح ٠٠اعتقد أن إقرار ثم تنظيم برنامج بهذا الشكل الباهظ التكاليف

سيكون أقرب إلى المستحيل ، ولكننى أعدك أن أحقق لك بقدر استطاعتى هذا المستحيل ، وأن أحصل لك على الموافقة المطلوبة ... فقط أرجو تعديلا مبدئيا ، هو أن تقتصر طلباتك على السفر بالسكك الحديدية البريطانية ، فلا أستطيع الموافقة أيضا على استخدام السفن للوصول بك إلى بلفاست ، أرجوك أن تشطب بلفاست هذه من خطتك، ثم دعنا نرى ماذا يمكن عمله فى الباقى ...."

كان من اللائق حينئذ، وإزاء هذا التفاهم السريع فيما بيننا ، والتشجيع الكريم من جانبه أن أبادر على الفور – من قبيل الذوق والأدب – بالتنازل عن بند واحد هو بند بلفاست من برنامج رحلتى الطموح الذى كنت أتمنى أن أحققه ، غير أننى قلت فى استسلام يختلط بالإصرار فى الوقت نفسه :

"سوف يحزننى ذلك حقا ، لأن زيارة الأستاذ فلان فى بلفاست قد قصدتها فى الحقيقة لذاته شخصيا، وليست للمكان ، فهو صاحب الدراسات فى فسيولوجيا الدورة الدموية الطرفية المرتبطة تماما بعملى ، ويهمنى بالفعل لقاؤه ..ولكن اذا كان ذلك غير ممكن فإن الأمرمتروك لك.

...

وكان ذلك هو الصدق تماما ، فنفذت الكلمـــات إلـــى إدراك الرجل الواسع الخبرة فى التعامل مع الوافدين ، وعاد مـــرة أخرى يخترقنى بنظراته قائلا "دكتور آراب : اعتقـــد أننـــى سوف أحقق لك كل طلباتك ....!! "

ولقد أوفى الرجل بوعده تماما ....

ولم يكن تنظيم مجموعة رحلات من لندن إلى تلـــك المـــدن البريطانية العديدة واحدة بعد الأخرى ، عبر أقصر طريـــق لتوفير الجهد والوقت والنفقات أمرا ســـهل التحقيـــق ، لأن خط سير كل رحلة ومدة الإقامة فى كل مدينة على حدة كان لابد أن يتم بتنسيق دقيق مع توفر فـــرص لقـــاء العلمـــاء والأساتذة الذين أردت مقابلتهم ، والتى تعتمد فى واقع الأمر على ظروف عمل كل منهم ...

وكان لابد لتنسيق هـــذه العمليـــة مـــن مـــرور أســـبوعين متواصلين من الاتصالات المكثفة بالبريد والتليفون لحجـــز المواعيد مع هؤلاء الناس جميعا....

وكنت أتابع تلك العملية وأطلع على نتائجـــها أولا بـــأول ، فأرى الخطة تتكامل أمامى جزءا بعد جزء حتى أصبح فـــى يدى هيكل أساسى كامل لبرنامج يشتمل على ثلاث رحـــلات

قصيرة إلى المدن القريبة أعود بعدكل منها إلى لنـــــدن،ثـــم رحلة طويلة شاملة تستغرق مايقرب من شهركامل لتغطيـــة زياراتى فى المدن الأخرى فىخط دائرى متصل ٠

ولقد تعلمت أسلوب هؤلاء الناس فى المجلس البريطانى فى تنسيق مثل هذه البرامج، بل إننى منذ ذلك اليوم عشقت ذلك النوع من تخطيط برامج الرحلات ، واســـــتخدمته بمـــهارة متزايدة بعد ذلك فى تخطيط رحلات فردية شخصية لـــــى أو رحلات جماعية لمجموعات من الزملاء فـــى كليـــة الطـــب لزيارة عدة بلاد ومدن فى رحلة واحدة ،وهـــــذا الأســـلوب يحتاج لأن يوضع حساب دقيق لمواعيــد الســفر ووســـائل المواصلات المتاحة وتدبير حجز أماكن الإقــــــامة مســبقا بالفنـــادق أو غيرها وتنظيم المستقبلين ، والاهتمام بـــأدق التفاصيل مسبقا احتسابا للمفاجآت غير المتوقعة ٠ وأستطيع الادعاء أننى قد حققت نجاحا كبيرا فى ذلك وخبرة لا تقـــل عن خبرة أى مدير لمكتب سياحى متخصص ٠٠٠

وهكـــــذا كان مجرد تنظيم رحلتى الأولى عبرالجزر البريطانيـــــة طـــولا وعرضا مفعمــا بالدروس المفيـــدة فى التنظيم ،فمندوبـــــــو المجلس البريطانى يضعون لـــك

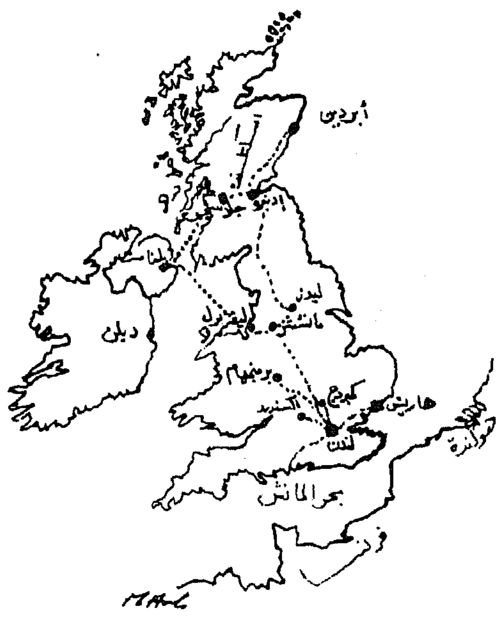
الإطار العام لموعد الرحلة أولا ؛ ثم تبدأ التعليمات تحدد لك في يوم كذا ، الساعة كذا سوف تتوجه لأخذ القطار من محطة كذا في لندن ، القطار يقوم الساعة كذا ويصل الساعة كذا ، وأجرة التذكرة ... وسوف تجد في انتظارك عند الوصول مستر فلان الذي سيصحبك إلى فندق كذا بشارع ...

وهكذا هم يمدونك مسبقا بإطار شامل لخط السير باليوم والساعة وخريطة الرحلة ... ثم يمدونك بعد ذلك بالتفصيلات الدقيقة ، إما مسبقا و إما تباعا خلال مراحل الرحلة ، فتذهب إلى الفندق مثلا لتجد في انتظارك رسالة معنونة باسمك بها تعليمات المرحلة التالية من رحلتك ، هذا إذا لم تكن قد وصلتك هذه التفصيلات من قبل . وهكذا كنت أصل إلى فندق ما في إحدى المدن فأجد خطابا رقيقا من ممثلي المجلس البريطاني المحليين يقول " نحن نرحب بوصولك، سوف تذهب صباح الغد إلى مستشفى ... لمقابلة الدكتور .... الساعة..... ، وسوف يدعوك إلى الغداء بعد العمل وقد وعد أيضا

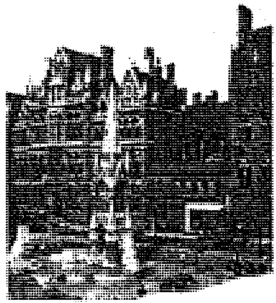
بمصاحبتك بعد الظهر فى جولة لزيارة بعض معالم المدينـــة".
ثم تجد فى متناول يدك التفاصيل العديـــدة التـــى لاشـــك أن الإعداد لها قد احتاج إلى تنســـيق دقيـــق بيـــن مركـــز القيـــــادة فى لندن ومندوبى المجلـــس بمختلف المـــدن والمناطق البريطانية...

وهكذا تحققت آمالى فى زيـــارة عـــدد ضخـــم من المـــدن البريطانية فى طول المملكة المتحدة وعرضها من أقصـــى الجـــنوب فى سوثـــهامتن إلى أقصـــى شمال اســـكتلندة فى أبردين .

الفصل التاسع
خواطر طبية فى
المدن البريطانية



برمنجهام



كمبردج

مدخل كنجزكولدج

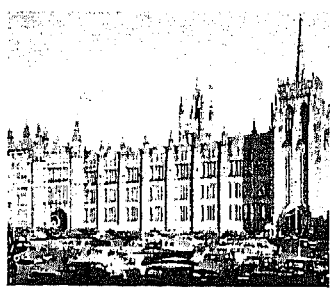


جامعة أبردين

واجهة أضخم مبنى

فى العالم من

الجرانيت الوردى

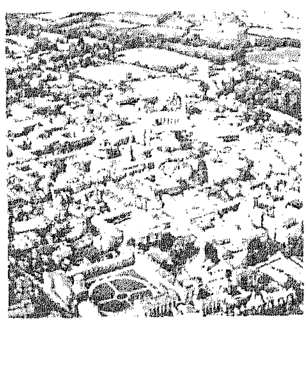




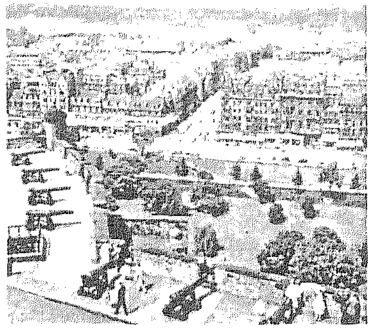
العالم البريطانى الشهير
اسحق نيوتن



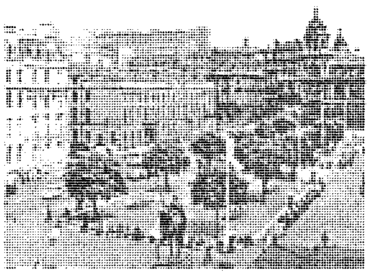
اوليفر كرومويل



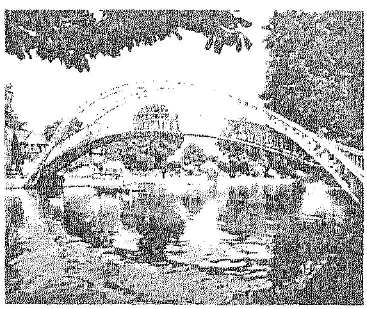
مدينة آكسفورد
المبانى الجامعية
بوسط المدينة



إدنبرة عاصمة
اسكتلندة

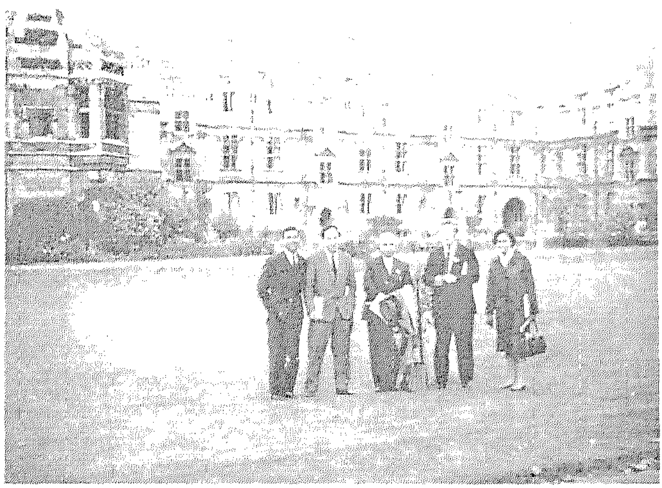


وسط مدينة
جلاسجو



مدينة بدفورد
على ضفاف نهر أوز





فى كمبردج ١٩٦٢ مؤتمر السكر للجمعية البريطانية

برمنجهام -اكسفورد- كمبردج

برمنجهام

لم أكن أعرف من قبل أن مدينة برمنجهام هى أكبر المدن سكانا فى بريطانيا بعد مدينة لندن ، ولكننى كنت أعرف عنها أنها مدينة الصناعات الانجليزية المتقدمة والتى تشمل صناعة كل شىء إبتداء من دبوس الإبرة حتى قاطرات السكك الحديدية والسيارات وأن بها أكبر مصانع الشيكولاته فى العالم .

وعندما تقرر أن تكون ضمن برنامج زياراتى فإننى وصلت إليها قادما من لندن بالقطار لأقضى فيها يوما واحدا لزيارة المستشفى العام بها ، ومقابلة أحد الباحثين الانجليز – دكتور مالينز–الذى كان قد قام بعدة أبحاث عن مضاعفات مرض السكر وعن مرض الروماتويد ، ولذلك فإنه كان من المناسب أن أزوره بترتيبات المجلس البريطانى المعتادة ، وأن أقوم معه بجولة فى أرجاء

المستشفى الكبير واستغرق كل ذلك نصف يوم فقط وأمضيت النصف الثانى من اليوم بعد ذلك أتنقل بسرعة بين معالم المدينة الرئيسية ابتداء من مبنى دار البلدية ذى الطابع الكلاسيكى مرورا بكنائسها التاريخية الانجليكانية والكاثوليكية التى لعبت دورا هاما فى الحياة السياسية وحركة الاصلاح البرلمانى،ثم دار المجلس المحلى والمكتبة المركزية ومبنى بورصة برمنجهام الشهير ،

وعندما انتهى برنامج هذه الزيارات كلها عدت إلى فندقى لأستعد لمغادرة المدينة فى صباح اليوم التالى من محطة سكة حديد سنوهيل وهى إحدى المحطات الثلاث الكبيرة الموزعة فى داخل المدينة متوجها إلى مدينة اكسفورد ،

أكسفورد

لم يكن من الصعب على أن أجد الوسيلة لأن أزور مدينة اكسفورد الشهيرة فهى على مسافة لاتزيد على خمسين ميلا من لندن ، وكان برنامجى فى الأصل موجها لزيارة أحد علمائها المشهورين وهو الدكتور كيث كوبر الذى كان يعمل فى مركز الأبحاث المتعلقة بحرارة الجسم فى مستشفى

رادكليف انفرمارى (مستشفى) وفى الطريق إلى أكسفورد أخذت استعرض فى ذاكرتى ماستوعبته الذاكرة من قراءاتى عن تاريخ تلك المدينة العريقة .. فهناك فى اكسفورد نشأت أقدم جامعات بريطانيا على الاطلاق منذ أوائل القرن الثالث عشر، وقامت شهرة المدينة ذاتها على وجود الجامعة الأولى بها .. ولايعرف أحد لماذا نشأت تلك الجامعة فى هذه المدينة بالذات ، وهى قد قامت على أى حال على يد مجموعة من المدرسين الذين نزحوا إلى هذا المكان قادمين من باريس حيث كانت توجد الجامعة الأوربية الأكثر قدما وعراقة ، وقد نقل هؤلاء النازحون تقاليدهم العلمية معهم من فرنسا ...

عندما وصلت إلى قلب المدينة حيث تقوم الجامعة ، فوجئت بأنها أروع بكثير مما كنت أتخيل ، فالطرقات هادئة ، ومبانى الكليات الجامعية التى يغلب عليها الطابع المعمارى القوطى والباروكى القديم تصطف عن يمينك أو يسارك فى شموخ وعظمة ، ويكاد الانسان أن يرى نور العلم وجلاله يشعان من كل مبنى فيها ... وهناك مايقرب من ٤٠

مبنى للكليات المختلفة يجمعها طابع الأصالة المميز وكل منها يكاد أن يكون له شبه استقلال ذاتى ..

وفى كل خطوة من خطواتك داخل المدينة تجد هنا أو هناك مبنى شهد أروع أحداث الحياة الأكاديمية ، فهذه كلية مورتون أقدم كليات الجامعة (١٢٦٤م) وتلك كلية كوينز كولدج Queens Colledge أو كلية ماجدالين Magdalin أو كنيسة المسيح Christ Church التى تعتبر فى الوقت ذاته كاتدرائية المدينة ... وكثير غير هذا وذلك من مبانى الدراسة أو المكتبات الجامعية أو دور الإقامة للطلاب والأساتذة ...

ويقول العارفون بتاريخ أكسفورد أن نوعية معينة من الناس هم الذين أقبلوا على الدراسة فى تلك الجامعة عند نشأتها الأولى ، وكانوا فى الأغلب من أبناء الطبقة المتوسطة الذين لم يكن لهم فى الحياة نصيب كبير ولكنهم كانوا يسعون لتحقيق مستقبل اجتماعى ومهنى أفضل لأنفسهم عن طريق الدراسة والتعليم ، حيث الطريق الوحيد إلى المراكز المرموقة فى الكنيسة ومن ثم إلى الحياة السياسية فى البلاد أمام أولئك الذين لم

يولدوا ضمن إطار الطبقة الحاكمة، واشتهرت جامعة اكسفورد منذ نشأتها الأولى بالاهتمام بعلوم اللاهوت والفلسفة والطبيعة والميتافزيقيا والآداب ٠

ومن الطريف أنه عند نشأة الحياة الجامعية الأولى قامت مشاجرات عديدة بين أهل العلم فى الجامعة وبين أهالى المدينة ، وتطورت تلك المشاجرات إلى صدام بين الكنيسة والدولة حتى استقرت الأمور بين جميع الأطراف بعد سنوات طويلة من المشاحنات والمصادمات. وجامعة اكسفورد أقدم من شقيقتها ومنافستها فى الشهرة والعراقة جامعة كمبردج ، وكانت جامعة أكسفورد أكثر تحفظا فى قبول أعمال التطوير والاصلاحات التى حاول المصلحون الدينيون إدخالها فى القرن السادس عشر على برامج التعليم ، غير أنه بمرور الزمن تطورت الأمور بالفعل وأدخلت الاصلاحات العديدة المتتالية على مناهج التعليم ٠٠٠ إلا أن طابع العراقة لم يتخل على الاطلاق عن الدراسات التى تشتهر بها جامعة اكسفورد ٠

ومن الغريب حقا أنه على بعد ميلين فقط من قلب المدينة الجامعى العريق قامت فى ضواحى اكسفورد مع مرور

الزمن صناعة ضخمة للسيارات ، بدأت منذ عام ١٩٢٠ بداية متواضعة على يد وليم موريس على هيئة أعمال بسيطة لتجميع السيارات ، ثم اتسعت هذه الصناعة تدريجيا لتصبح تلك المنطقة من أكبر مناطق صناعة السيارات في بريطانيا حيث تنتج مجموعة مختلفة من ماركات السيارات الانجليزية الشهيرة ... إلا أن كل ذلك لم يؤثر على الإطلاق على منطقة وسط المدينة القديم الذى تضافرت جهود الأجيال المتعاقبة عبر القرون لتبقيه على صورته المميزة وطابعه العريق ، تحيط مبانيه وقاعاته وكنائسه روعة الهدوء وجلال العلم ، ويهرع الزائرون من كل أنحاء العالم إليه فيغمرهم شعور فياض من الخشوع والتقدير والاحترام لعظمة الحياة الأكاديمية التى يحياها طلاب العلم فى قلب مدينة اكسفورد ...

كمبردج

اسم آخر كان له دائما رنين فى أذنى كدقات الأجراس الضخمة ... وكلما يطرق هذا الاسم سمعى تطوف بمخيلتى على الفور صورة أفواج من طلاب الجامعة

يرفلون فى أرديتهم الجامعية والأساتذه يسيرون أمامهم فى وقار متجهين جميعا إلى محراب علمهم فى الجامعة ...

فكمبردج المدينة ببساطة هى مدينة جامعة كامبردج، ومع ذلك فإن المدينة ذاتها قد نشأت قبل قيام الجامعة ، فقد كانت كمبردج المدينة سوقا شهيرة خلال العصور الوسطى ، ثم ولدت بها الجامعة بعد ذلك فى أوائل القرن الثالث عشر ..

لم يكن أمام تدبيرى لرحلتى إلى كمبردج بالذات أى صعوبة ، فقد كان من حسن حظى أن يتقرر عقد الاجتماع السنوى لجمعية السكر البريطانية هناك عام ١٩٦٢ وكان على فريق الباحثين فى قسم الطب التجريبى بكلية طب جايز – وأنا واحد منهم – أن يحضروا ذلك الاجتماع لتقديم نتائج البحث الذى كنا قد أتممناه كعمل جماعى لدراسة انتشار مرض السكر فى مدينة بدفورد بالاضافه إلى بعض نتائج بحوثنا المعملية والاكلينيكية الأخرى ...

وقد تكفل المجلس البريطانى من تلقاء نفسه باعتبارى تحت رعايته آنذاك بتحمل نفقات اشتراكى فى هذا المؤتمر كعضو من أعضاء وفد كلية طب جايز للمؤتمر .

وجاء بهذه المناسبة أساتذة من مصر لحضور المؤتمـــر ، وكان من بينهم أستاذى المرحوم الدكتور مصطفـــى غـــانم.

حضر الأستاذ غانم رحمه الله من مصر أولا إلى لنـــدن ، وكان شخصية علمية ممتازة ، بالغ النشاط ، خفيف الــروح ، وكانت بينه وبين أستاذى البريطانى بترفيلد صداقة قوية ، ومداعبات طريفة .

وهكذا كـــان مؤتمـــر كمـــبردج للســـكر هـــو أول المؤتمرات العلمية الكبيرة التى أحضرها ... وقد اختـــاروا لعقده ذلك المكان الجميل وسط الحى الجامعـــى، وأعـــدوا لنا أماكن للاقامة خلال أيام المؤتمر داخل مبـــانى الكليـــات ذاتها، واستمر المؤتمر ثلاثة أيام كـــانت فرصتـــى خلالـــها كبيرة لأعيش حـــاضر تلـــك المدينـــة العريقـــة الخلابـــة ، واسترجع من خلال تاريخها عظمة ماضيها .

ولقد علمت من مرافقى أن جامعة كمبردج علـــى عراقتـــها نشأت بعد جامعة اكسفورد ، ونتيجـــة لخـــلاف قـــام فـــى اكسفورد ، انتقلت على أثره جماعة من أســـاتذة اكســـفورد إلى كمبردج عام ١٢٠٩، ومع أنهم عادوا بعد ذلـــك إلـــى أكسفورد إلا أنهم كانوا قد وضعوا فى كمبردج أسس الحيـــاة

الأكاديمية على نفس النسق الذى كانت عليه الأمور فى أكسفورد والمنقول أصلا من جامعة باريس ،ولكن جامعة كمبردج لم تصبح لها شخصية مميزة حتى عام ١٢٢٦ ...

كنت استمع بشغف لتاريخ كمبردج واكسفورد ، الذى يرتبط بتاريخ التقاليد الجامعية التى يعتز بها الانجليز كل الاعتزاز ويحرصون عليها حرصا شديدا ،و هذه التقاليد تبهرنا كثيرا مع أننى أتذكر على الفور أننا نحن الشرقيون العرب المسلمون قد كنا السباقين إلى وضع كثير من تلك التقاليد ونحن منشئوها ...

فلئن كانت جامعة كمبردج العريقة عمرها ستة قرون أو سبعة ، فإن أقدم جامعاتنا التى لازالت قائمة – وهى الأزهر الشريف – قائمة بالفعل منذ مايقرب من ألف عام ،ولئن كانت لهم تقاليد جامعية يفخرون بها ويحرصون عليها ، فلقد كان لنا من قبلهم فى الشرق العربى فى بغداد ودمشق والقاهرة والمغرب العربى فى الاندلس، تقاليد أصيلة ...

ولا ننسى أن طلاب العلم كانوا يفدون من كل دول أوروبا إلى الأندلس لتلقى العلم فى قرطبة وطليطلة التى شهدت الجامعات فيها أعظم التقاليد وأرقاها ، و كانت الجامعات هناك تدرس علوم الفلسفة والطب والكيمياء والفلك والرياضيات وغيرها وتمنح الدارسين الاجازات العلمية بعد أن يقوم الطلاب بتقديم رسائل جامعية تطرح للمناقشة بواسطة الأساتذة كما نفعل اليوم تماما ...

ولماذا لا نتذكر أيضا أن العرب المسلمين هم الذين أقاموا أول مدرسة للطب فى أوروبا ، وكان ذلك فى مدينة بالرمو عاصمة صقلية وكانت سالرنو بايطاليا أيضا من أهم مراكز نشر الثقافة العربية الاسلامية بعد ذلك إلى كل أرجاء أوروبا .

وأصحو من أحلامى التى تسترجع ماضينا الزاهر، ليذكرنى صديقى الانجليزى بتاريخ الحياة الأكاديمية الذى تنطق به المبانى المهيبة لكليات الجامعة فى كمبردج ، فيقول لى أن الحياة الأكاديمية بدأت فى عهدها الأول عندما كان التدريس يتم فى البيوت الخاصة بالمدينة ، ثم

بدأ بناء أول كليـــات الجامعـــة عـــام ١٢٨٠ وهـــى كليـــة بيترهاوس، ثم توالى بعد ذلك انشاء الكليات واحـــــدة بعـــد الأخرى ، ولم تأخذ جامعة كمبردج وضعا مميزاً قبل حلـــول القرن الخامس عشر حيث أنشـــئت بـــها كليـــات القـــانون والآداب والمكتبة العامة وأقيمت كلية سانت مارى وســـانت نيكولاس التى عرفت بعد ذلـــك باســـم كنجزكولـــدج kings Colledge •

ولا يسعك وأن تجـــوس خـــلال طرقـــات كمـــبردج وتشاهد كلياتها المبنية على الطـــــراز القوطى الكلاســـيكى المهيب أن تنسى ذلك التاريخ العلمى والسياسى لانجلـــترا ، ففى كل بقعة هنا أو هناك ، قد علّم أو تعلّم أحـــد مشـــاهير بريطانيا أو علمائها •

فهذه مثلا كلية ترينيتى Trinity التى أنشأها هـــنرى الثالث عام١٥٤٦ قد شهدت حياة "اســـحق نيوتـــن" عـــالم الرياضيات والطبيعة الانجليزى الشهير وصاحب الإنجـــازات العلمية فى دراسة الجاذبية الأرضيـــة،كمـــا تعـــتز جامعـــة كمبردج بأن أعظم علماء الإنسانيات فى عصر النهضة وهو الكاتب الهولندى إراسموس Erasums قـــد عـــاش لفـــترة

قصيرة يدرس ويحاضر بالجامعة ووضع هناك أشهر مؤلفاته ·ولقد كانت الدراسات الاكاديمية فى جامعة كمبردج تهتم بادىء ذى بدىء بعلوم اللاهوت ثم المنطق ثم انتقلت بعد ذلك إلى ماأطلق عليه مربع العلوم Quadrivium وهو علوم الرياضيات وحساب المثلثات والفلك والموسيقى ، ولم تتسع مجالات العلوم بعد ذلك إلا عندما شجع هنرى الثالث (عام ١٥٤٠) الاهتمام بمختلف العلوم الأخرى · وفى عهد الملكة اليزابث الأولى أصبحت كمبردج من أهم مراكز حركة البيوريتان وامتد ذلك إلى أوائل عهد أسرة ستيوارت ·

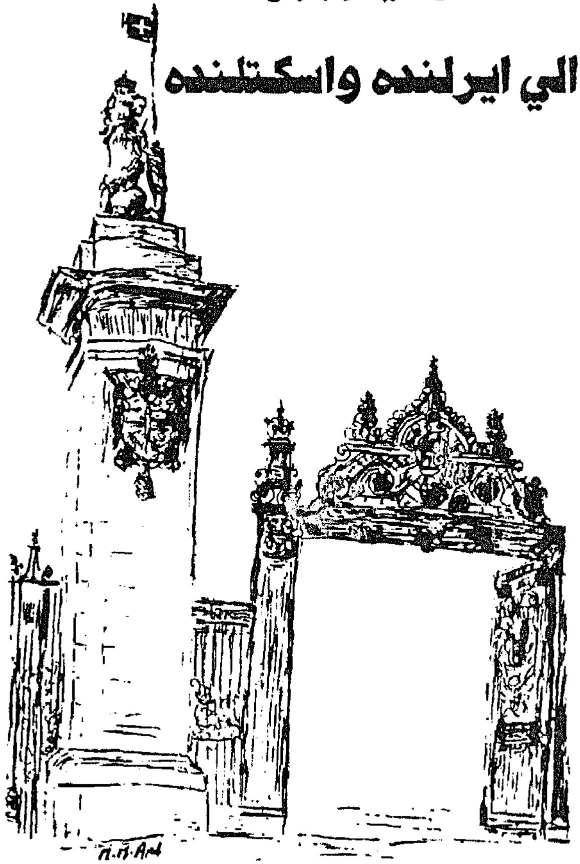
ومن الشخصيات البارزة فى تاريخ كمبردج توماس كروमويل (١٥٣٥) الذى عرفت رئاسته بالحزم وعلى يديه ارتبطت الجامعة بالعقيدة البروتستانتية، واستمر ذلك بالرغم من القلاقل السياسية · كما يرتبط تاريخ كمبردج بكرومويل آخر وهو أوليفركرومويل الكبير أوكرومويل الحديدى الذى حكم انجلترا وارتبط تاريخه بتاريخ البرلمان البريطانى والحرب الأهلية وإعدام الملك تشارلس الأول، وهو ابن أخ توماس كرومويل الذى ذكرناه ، وكان أوليفر قد وصل إلى

كمبردج بعد انهاء دراسته القانونية ليدرس فى كلية سـيدنى سسكسSidney Sussex التى كانت معقل دراسة البيوريتـــان قبل أن ينتقل لدراسة القانون بعيدا عن كمبردج بعد ذلك ،

الفصل العاشر

من ليفربول

الي ايرلنده واسكتلنده



من ليفربول إلى مدن ايرلنده واسكتلندة

ليفربـــول

كانت زيارتى إلى ليفربول خاطفة فلم أتمكـــن مـــن رؤية الكثير من معالم هذه المدينة الشهيرة الواقعـــة علـــى الساحل الغربى من انجلترا حيث كان علىّ أن أستقل منـــها على وجه السرعة العبارة إلى بلفاست .

وليفربول مدينة تقوم حياتها على الميناء الضخـــم الذى يجعلها من أهم شرايين الحياة الاقتصادية فى بريطانيـا ومركز اتصال هام بالصناعات المحيطـــة بـــها . غـــير أن شهرتها العلمية والثقافية وهى التى تهمنى بالدرجة الأولـــى لم تكن مجهولة لى فقد كنت أسمع كثـيرا عـــن "المدرســـة العليا لطب المناطق الحارة " فى ليفربول لأن الكثـــير مـــن أساتذتى فى كلية الطب كانوا يحملون الدبلوم المتخصـــص فى هذا الفرع من فروع الطب. والـــذى يدفعنـــا للاهتمـــام بصورة مباشرة بتلك المدرسة أنها تعتبر أهم مراكـــز هـــذا التخصص فى العالم . أما جامعة ليفربول الأم فقد نشـــأت

منذ عام ١٨٨١ وكانت تضم فى أول الأمر مـــالايزيد علــى ٩٠ طالبا ثم أصبح بها اليوم عشرات الآلاف من الطلاب ٠ والمدينة فى تاريخ نشأتها الاقتصادية قد اعتمدت أولا على التجارة الدولية القادمة عبر الميناء من أمريكا وجزر الــهند الغربية (السكر والدخان) ثم على صناعات النسيج بـــالقرب منها، أمامن الناحية الإنسانية فقد كان من الملفت للنظر جدا تلك الروح الودية للغاية التى يقابلك بها أهل المدينة وأنـــت تتجول فى شوارعها الفسيحة أوتزورمعالمها الشهيرة، ثـــم عظمة المدينة ذاتها وأنت تطل عليها من سطح العبّارة وهى تغادر أرصفة الميناء الواقع على امتداد البحر عند مصـــــب نهر المرسيى الذى تقـــع عليـــه المدينـــة حيـــث يبـــهرك المنظرالمهيب لخط الأفق مع مبانى المدينة الرائعة ٠

بلفاســـت

كانت مدينة بلفاست مثيرة لى منـــذ اللحظـــة التـــى صممت فيها على الذهاب إليها لمقابلة الأســـتاذ جرينفيلـــد صاحب الخبرة الواسعة فى أبحاث الـــدورة الدمويـــة فـــى الأطراف والتى كنت قد أجريت على قياساتها بعض الأبحاث

فى لندن ، ثم كانت القصة التى أشرت إليها من قبل وهى اعتراض ضابط الاتصال بالمجلس البريطانى أولا ثم موافقته بعد ذلك على تحقيق رغبتى فى هذه الزيارة .

وكان الأيرلنديون أيضا موضع فضولى فقد كنت أسكن فى لندن فى حجرة مستأجرة لدى أسرة إيرلنديه ولديهم سبعة أطفال وهو رقم غريب بكل المقاييس ولكنهم كانوا أناسا طيبين ودودين للغاية .

وأيرلنده الشمالية وهى جزء من المملكة المتحدة كانت دائما ذات تاريخ مفعم بالقلاقل السياسية والخلافات الدينية بين سكانها الذين يوجد ثلثهم تقريبا فى مدينة بلفاست ، ولكن ذلك لم يكن فى الستينيات بالعنف الذى أصبح عليه فيما بعد .

وبصرف النظر عما يمكن مشاهدته من معالم فى مدينة بلفاست فى الوقت الذى كان متاحا لى بعد زيارة الجامعة (كوينز Queens University) فقد كان عالقا فى ذهنى عن مظاهر الحياة هناك ثلاثة موضوعات: الجو السياسى والدينى ، ثم مأساة السفينة المشهورة تيتانيك التى غرقت فى رحلتها الأولى ، ثم صناعة اللنين الذى اشتهر به

الايرلنديون، وبالطبع هذه الموضوعات قد لايبدو هناك رابط بين الواحد منها والآخر .

ولهذا فقد لفت نظرى عند زيارة المدينة وجود كاتدرائيتان فى بلفاست إحداهما للبروتستانت والأخرى للكاثوليك ، وقد حرصت على الذهاب إلى موقع البرلمان الذى يبعد بضعة أميال عن وسط المدينة فى ضاحية ستورمونت وهو مبنى عظيم وضخم ويعبر عن روح الاستقلالية الذاتية لإيرلنده الشمالية .

وبلفاست بها أحواض لبناء السفن تكاد أن تكون أكبر من مثيلاتها فى العالم وقد دفعنى الفضول إلى أن أتجول داخل الأرصفة المحيطة بهذه الأحواض الضخمة التى تقوم ببناء أضخم السفن التجارية وناقلات البترول العملاقة وكذلك سفن الركاب الهائلة ،وأشهر هذه السفن كان للأسف هو الباخرة المنكوبة تيتانيك التى كانت قد بُنيت بالفعل فى هذه الترسانة .

وإذا كانت بلفاست فى الأصل قد نشأت نشأة متواضعة منذ القرن الثانى عشر كسوق تجارى فقد أخذت فى النمو بفضل جماعة من اللاجئين من طائفة الهيجونوت

الذين حملوا معهم مهنة صناعة الكتان الذى اشتهرت به المدينة بعد ذلك وأصبحت مركزا هاما لصناعة وتجارة اللنين الايرلندى الفاخر - إلا أن صناعات أخرى أخذت فى النمو حول المدينة وفى ضواحيها حتى أصبحت بلفاست قلعة للصناعات العسكرية من الطائرات إلى الصواريخ والصناعات المدنية الأخرى كالتليفونات والأجهزة الكهربائية .

أما الجامعة - جامعة كوينز - فلها قصة غريبة فقد نشأت فى الأصل كجامعة ثم أنزلت درجتها بعد بضع سنوات إلى درجة كلية فقط ولكنها استعادت بعد ذلك مرتبتها واعتُرف بها كجامعة ثم أخذت تنمو باضطراد حتى بلغت شهرة عظيمة فى مجالى الطب والهندسة بوجه خاص .

إلى اسكتلنده

كان الجزء من رحلتى إلى اسكتلنده بالغ الدقة فى التنظيم ، أما المتعة الثقافية والعلمية فقد كانت بلا حدود ، ولازلت حتى اليوم احتفظ باعتزاز بين أوراقى بذلك الكتيب الصغير الذى يحمل اسم "المجلس البريطانى -اسكتلنده "

والذى يضم إلى جانب بعض المعلومـــات الأساســية عــن مكاتب هذا ألمجلــس فـــى المــدن الاســكتلندية المختلفــة والأنشطة والخدمات التى تقدمها هذه المكـــاتب للزائريــن صفحة خاصة حددوا لى فيها بالتفصيل خط سير زيـــاراتى لثلاث من المدن الاسكتلندية هى إدنبره وجلاسجو وأبرديــن - وليعذرنى القارىء الكريم إذا نقلت بالتفصيل أيضا جانبــا من تلك التعليمات لنرى معا روعة التخطيـــط ، والاهتمــام بالتفاصيل الدقيقة، فهى تقول على وجه التحديد :

سوف تصل إلى إدنــبره يــوم الأحــد ١٤ أكتوبــر وستجد مكان إقامتك محجوزا فى فندق "ســاتيزْبحى ســاوث بردج، وفى يوم الأثنين ١٥ أكتوبر عليك أن تقـــدم نفســك للدكتور فرانسيس مدير مستشفى الرويال انفرمارى بــادنبره الذى سوف يقدمك إلى دكتور لزلى دنكـــان لإتمـــام اللقـــاء العلمى بينكما - وفى الخامسة والنصف مساءا تأخذ قطـــار أبردين من محطة ويفرلى ويصل ٨ر٥٣ مساء ،وســـتقابلك بالمحطة مندوبة المجلس البريطانى مس آلان لتوصلك إلـــى فندق "فيرى هيلْ" بشارع بون آكورد، وفى الساعة العاشـــرة صباح اليوم التالى تقابل مدير مستشفى الرويال انفرمـــارى

بأبردين الذى سوف يقدمك إلـــى دكتورســتوارز للزيــارة العلمية ،

وفى يوم الأربعاء سوف تغــادر أبرديــن الســاعة ٤٠ر٩ صباحا لتعود مرة أخرى إلى إدنبره وتصـــل ٠٤ر١ مساء لتنزل فى نفس الفندق (ساتيز) وسوف أقابلك بنفســى (المتحدث هنا هو المستر موراى ممثل المجلس البريطــانى فى اسكتــلنده) وســوف نتناول الغداء معـــا فـــى نـــادى الجامعة وبعد الظهر تقابل الدكتور فرانسيس لتنظيم زيــارتك العلمية الثانية بلقاء الدكتورة كاترين بــيرت، وفــى يــوم الخميس ١٨ أكتوبر تسافر من محطة ويفرلى إلى جلاســجو فتصل إلى محطة كوين ستريت هناك وقد حجزنا لك غرفـــة فى فندق جمعية الشبان المسيحية بشارع بوذويل ، وبعـــد الظهر سوف تقابل الدكتور بلور وســيتولى مكتبنـــا فـــى جلاسجو إمدادك بتفاصيل البرنامج بعد ذلك ....

سبحان الله ،هل بعد كل هذا التخطيط والتدقيق يوجد أمام الانسان إلا أن يتعلم الدرس ويعيه تمامــا ، وأنـــا أرى بعد ذلك كل صغيرة وكبيرة من هذا السيناريو تتم بمنتــــهى الانضباط والإتقان .....

وعندما بدأت فى الاستعداد للذهاب إلى اسكتلنده كان علىّ أن أراجع معلوماتى عن هذا الجزء الهام المكوّن للمملكة المتحدة، وكثير من هذه المعلومات كان يحيط به التشويش فى ذهنى ولهذا فقد قررت أن أتسلح بالحد الأدنى من المعلومات عن ماضى وحاضر اسكتلنده التى لم تصبح فى وحدة سياسية نهائية مع انجلترا إلا فى عام ١٧٠٧ وكان تاريخها من قبل حافلا بالقلاقل السياسية والاضطرابات الدينية شأنها شأن انجلترا أيضا ،ولم تكن اسكتلنده قد توحدت من داخلها فى مملكة واحدة إلا عام ١٠٣٤ ٠ وقد تم قيام الاتحاد مع انجلترا فى عهدة الملكة آن التى أصبحت أول من يجلس على عرش بريطانيا العظمى ولم تفلح بعض القلاقل السياسية بعد ذلك فى فك هذا الارتباط ٠

ويخطىء من يظن أن الشعور بالاندماج التام قد تحقق بين الشعبين الانجليزى والاسكتلندى بصورة كاملة، ولايخفى على الزائر أن الاسكتلنديين ينتابهم دائما الشعور الجارف بالاستقلالية والاختلاف عن الانجليز ، وقد بلغ هذا الشعور حد المرارة بوجه خاص عندما اجتاحت العالم

الأزمة الاقتصادية فى الثلاثينيات وقد عانت منه اسكتلنده بعنف نتيجة لاعتماد الصناعات الكبرى بها على علاقتها بانجلترا، إلا أن اسكتلنده قد حققت مع ذلك مكاسب لايمكن إنكارها من الاتحاد مع انجلترا ولهذا فإن المشاعر بالاستقلالية عن التاج البريطانى لم تصل فى أى وقت إلى مثيلتها فى ايرلنده .

ومع عدم الدخول فى تفاصيل الصراعات السياسية التى انتهت بالاتحاد بين انجلتراواسكتلنده فلابد من أن نتبين أن هذا الاتحاد لم يحطم الاستقلال الذاتى لاسكتلنده تماما، فبقيت الكنيسة فى اسكتلنده مستقلة عن الكنيسة الانجليزية ، كما استمر النظام القانونى والقضائى مختلفا عن نظيره الانجليزى إلى حد كبير، ويظهر ذلك فى الاجراءات المرتبطة بالمسائل الجنائية والقانونية فعلى سبيل المثال يمكن أن تصدر المحاكم فى النظام الاسكتلندى فى اتهام جنائى حكما بأنه "لم يثبت" ، كما أن الوصية المكتوبة بواسطة الموصى لاتحتاج إلى شهود ، والزواج يمكن أن يُعترف به قانونا إذا كان موثقا أو كان زواجا

بمقتضى مراسم دينية،أوكـــان بمجـرد ثبـوت المعاشــرة الطويلة بدون أى مراسم ٠

أما اللغة الاسكتلندية فهى بالطبع الانجليزية ولكـــن اللهجة السائدة ممـــيزة ولاتخطئــها الأذن ،وتســتطيع أن تميزها بسهولة عن لغة الانجليز فى لنـــدن، وهـــى نتيجـــة لتأثير مشترك من مصدرين الأول هو اللغـــة الوافـــدة مـــن الجنوب أى من انجلترا ذاتها والثانى هو اللغة التى وفـــدت مع المهاجرين من أيرلنده ٠

إدنبـــر ه

كانت زيارتى لإدنبره عاصمة الشـــمال الاســكتلندى مجزأة على مرحلتين لتتفق مواعيد مقابلاتى مـــع ظـروف أساتذتها ، إلا أنها كانت كافية لإطلالة سريعة على المدينـــة التى يرتبط اسمها بوجه خاص فى ذهن أى طبيب مصـــرى بدرجة "زمالة كلية الأطباء الملكية بادنبره"التى كنت كثـــيرا ماأسمع عنها لأن عددا كبيرا من قدامــــى أســاتذة الطـــب المصريين كانوا قد بدأوا مناصبهم الجامعية بعد حصولـــهم

على درجات التخصص العالى عن طريق نيل شـــهادة تلــك الزمالة أو أختها "زمالة كلية الأطباء الملكية بلندن " ،

وإدنبره بالطبع هى احدى المدن البريطانية الكـبرى وبها قلعة شهيرة تقوم على جبل صخـــرى مرتفـــع يرجـــع تاريخها إلى القرن الحادى عشر، وقد نشأت المدينة ذاتـــها على سفح ذلك الجبل ثم أصبحت ادنبره عاصمة لاســـكتلنده فى القرن الخامس عشر ، وأعيد تخطيط المدينة بعد ذلـــك بميادين وطرق فسيحة أهمها طريق الأمراء Princes Street وطريق الميل الملكى Royal Mile المتوازيان ويكونان معـا المحور الأساسى فى تخطيط المدينة ،

وقد دفعنى الفضول لأن أتحرى عن ســـبب شـــهرة إدنبره فى مجالى التعليم والطب ، فعرفت أن التعليـــم فـــى اسكتلنده بوجه خاص فى نشأته الأولى قد تميز عن التعليـم فى انجلترا بالاعتماد على تقاليد التعليم الخاص حيث كـــان الطلاب يدفعون مصروفات تعليمهم ، مع إنشاء المـــدراس والكليات بالجهود الخاصة ، وقد أُسست الجامعة هناك عـام ١٥٨٣ واشتهرت بوجه خاص بدراســة الطـب والقـانون

وكانت جامعة إدنبره أول جامعة بريطانية تنشىء فى كلية الطب بها برنامجا كاملا لتعليم الطب (عام ١٧٢٦) .

وزيارة إدنبره تشعرك على الفور بصدق ما وصفت به المدينة بروح فيها الكثير من التقاليد الأوروبية ، والمجتمع هناك - على الأقل حتى وقت زيارتى لها عام ١٩٦٢ -كان لايزال بالأصالة التى لم تتأثر كثيرا بالتحولات الطبقية حيث ظلت آداب التعامل والعلاقات الشخصية الإنسانية الراقية هى السائدة بين الناس جميعا على السواء .

أبردين

ولم تكن زيارتى لأبردين فى ذلك اليوم من خريف عام ١٩٦٢ -وهى فى أقصى الجزء الشمالى من اسكتلنده - إلا زيارة قصيرة ، وحسنا أنها كانت قبل حلول فصل الشتاء الذى لابد وأن يكون قارص البرودة هناك ، وأستطيع أن أتخيل مبانيها عندئذ وهى مغطاة بطبقات الثلوج مما كان ولابد أن يفقدنى متعة ماشد انتباهى من جمال هذه المبانى عندما رأيتها فى صباح اليوم التالى لوصولى ، فهى مدينة

يغلب عليها اللون الأبيض المشرب بشــــىء مـــن الصفـــرة الوردية ، وقد زال عجبى عندما عرفت أنهم يطلقون عليـــها اسم "مدينة الجرانيت " لأن هذا اللون الجميل لمبانيها هـــو السبب، فهى مبنية بأحجار الجرانيت الفاتح اللون ، ولـــهذا فإنه يختلف عن الجرانيت المصرى المعروف لنـــا والـــذى يغلب عليه اللون الأحمر الداكن .

وعندما استيقظت فى الصباح للقيام بزيارتى العلمية أردت التجول فى المدينة الجميلة الهادئة ذات التاريخ القديم الذى يرجع إلى القرنين الثالث والرابع عشر فوجدتـــها مـــا تزال تحتفظ بطابعها القديم قـــرب منطقـــة وســـط المدينـــة "كاسلجيت"أى بوابة الحصن والتى كانت فى الأصـــل مقـــرا لسوق المدينة فى العصور القديمة .

وقد علمت أن جامعة ابردين قد نشأت عـــام ١٨٦٠ من اتحاد كليتين من كليات العصور الوسطى كـــان يغلـــب عليهما الطـــابع الدينـــى إحداهمـــا كاثوليكيـــة والأخـــرى بروتستانتيه، ثم توالى بعد ذلك إنشاء كليـــات أخـــرى فـــى مختلف التخصصات .

وقد كانت أبردين أصلا من أكبر موانى الصيد المطلة على بحر الشمال ومركزا للتعامل الاقتصادى مع الدول الاسكندنافيه ودول البلطيق المواجهة على الجانب الأخر، ولكنها أصبحت بعد ذلك من أهم المراكز للصناعات البترولية بعد اكتشاف البترول الوفير فى بحر الشمال ٠

جلاسجو

انتهت زيارتى القصيرة لمدينة جلاسجو بعد أن قمت بزيارة علمية سريعة للمستشفى الغربى بالمدينة West Infirmary للقاء أحد الأساتذة المتخصصين فى الأوعية الدموية، ثم توفر لى بعد ذلك الوقت الكافى للتجول فى المدينة الكبيرة التى تعتبر العاصمة الاقتصادية لاسكتلنده والتى يسكنها حوالى خمس سكان اسكتلنده ، و تقع على الساحل الغربى من المضيق الذى يفصل اسكتلنده عن ايرلنده الشمالية وهى لذلك مركز صناعى وتجارى هام جدا وأما عن جامعتها فهى ثانى أقدم الجامعات الاسكتلندية ومن أشهر كلياتها "كلية العلوم والتكنولوجيا" التى تعتبر بالفعل أقدم كليات التكنولوجيا فى بريطانيا ٠

وكنت قد خططت لنفسى أن أزور وسط المدينة لأرى أشــهر معالمها على وجه السرعة ثم أتوجه بعد ذلك لزيــارة أحــد المعالم الذى كنت أتطلع لزيارته بوجه خاص وهو النصــب التذكارى للرحالة الاسكتلندى الشــهير دافيــد ليفنجســتون مستكشف الكثير من معالم القــارة الافريقيــة • ويرجــع اهتمامى بشخصية هذا الرجل الاسكتلندى إلى قصة حياتــه الغريبة التى بدأت بتخرجه طبيبا ولكنه بسبب ميوله الدينيـة تحول إلى مهمة التبشير ، وكــان ينــوى أن يقــوم بــهذه الرسالة فى الصين إلا أن الأقدار دفعت به إلى إفريقيا حيـث بدأ من بتشوانالاند ومارس مهمته التبشيرية ، ولكنه بدأ فى نفس الوقت عمليات استكشاف المجهول من قارة افريقيــة الغامضة ، وتم له عمل ثلاث رحلات متوالية غطــى فيــها منطقة حوض نهر زامبيزى واكتشف عدة بحيرات ووصــل إلى بحيرة تانجا نيقا فى آخــر المطاف •

وقد أصابنى الاحباط لأن الوقت لــم يمكننــى مــن زيارة الموقع الذى يوجد فيه منزل هذا الرحالة •

وللأسف الشديد فإن الظروف قد توفرت لى لزيــارة أخرى لاحقة إلى مدينة جلاسجو عام ١٩٨٩ ضمــن وفــد

من كلية الطب بدعوة من جامعتها ومع ذلك لم تتــــح لــى الفرصة تلك المرة أيضا لتحقيق رغبتى فى زيــارة معــالم النصب التذكارى للرحالة ليفنجستون التى أضعها فى خططى المستقبلة إذا سمحت الظروف بمشيئة الله ٠

وربما بدأ اهتمامى منذ الصغر بأخبار الاكتشــافات الجغرافية التى قامت فى افريقيا خاصة ماكان منها لاكتشاف منابــــع النيــل فقــــد كانــت تلهب خيـــالى بمــــا فيها من إثــــــارة ، وقد استمر اهتمامى بأخبار هـــذه الاكتشافات ومتابعة قصصها التى دفعت بى بعد ذلك بسنوات عديدة لتخطيط زيارات متعددة إلى قلب القــارة الإفريقيــة والوقوف عند منابع النيل فى بحيرات فيكتوريــا وتنجانيقــا وغيرها ،ومشاهدة العلامات التذكارية والتى تشــير إلــى مسيرة المستكشفين بمختلف المواقع هناك ٠

- وهنا أستأذن القارئ الكريم فى الأنتقال إلى كتابى الرابع من مجموعة الوقائع الطبية والذى يحكى قصة زيارتنــا لافريقيا تحت عنوان ٠

سفراء إلى إفريقيا فى ملابس بيضاء "